الطبعة 3



رواية

الفاعل

حمدى أبوجُليّل

ميريت

الرواية الفائزة بجائزة «نجيب محفوظ» 2008

NAGUIB MAHFOUZ MEDAL FOR LITERATURE

الفاعل

الفاعل

رواية

حمدى أبو جليل

الطبعة الثالثة ٢٠٠٩.

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.org
merit56@hotmail.com

الغلاف: **أحمد اللباد**

المدير العام: **محمد هاشم**

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٢٨١٥

الترقيم الدولى: **977-351-400-5**

حمدى أبو جليل

الفاعل

رواية

دار ميريت
القاهرة ٢٠٠٩

البعض معه فكة و البعض ليس معه فكة.. و هكذا الحياة.

إبراهيم منصور

أعتقد أن ما حدث لى يحدث لكل إنسان آخر بدون أى اختلاف.

مارجريت دورا

ترجمة: إبراهيم منصور

الملفات فى الرأس يا صديقي

شربت السيجارة، كانت قوية، كل سيجارة أشربها أقول إنها قوية، إنها "صنف محترم"، ولكنى أحس أن هذه قوية على نحو خاص، قطعة الحشيش كانت تعمل خمس سجاير مضبوطة، لو كان لدى أصدقاء لعملتها تمنية أو حتى عشرة، ولكنى عملتها ثلاثة فقط، شجعت نفسى بأن هذا مفيد للتفكير فى الرواية، وكل واحدة لففتها بطريقة مختلفة، وقلت أبدأ بها، دائما أحب البداية بما أظن أنه الأضعف، الأسوأ، أنا لخلل ما أعوّل فقط على النهاية الطيبة، تنقصنى فطنة قطف الشيء الأفضل أولا، إذا كان لدى كتابان أبدأ بما أظن أنه الأضعف، وإذا جلست إلى مائدة طعام أخطط لأن تكون اللقمة الأخيرة هى ما أشتهيه حقا، أنا من قوم يؤجلون "منابات " اللحم حتى الرمق الأخير من الطعام، وهذه السيجارة كانت الأضعف، كانت الثانية من حيث ترتيب اللف، لففت واحدة قبلها وواحدة بعدها، فى الأولى أشتاق للحشيش، أتلهف على قطعه الخفيفة وهى تتساقط فى فم السيجارة المفتوحة بين يدى، وفى الثانية أو الوسطى تتملكنى حالة الحرص أو قل البخل، المسائل لا تأتى بسهولة، مشوار طويل حتى يختلى الواحد

بنفسه ويبدأ فى اللف، لا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا، أما السيجارة الأخيرة فهى حشيش صافى، الحشيش الأثقل يزوغ بين الدخان حتى يسقط فى فم الأخيرة، ولكن هذه السيجارة كانت كافية، تقليل كمية الدخان فكرة جيدة، كانت من النوع الذى يشعرك بالرضا عن نفسك، بأن الدنيا مازالت أمامك، تجولى فى الغرفة الآن هو أهم مظاهر احتفالى بالصنوف الطيبة، الأفكار تكاد تهزنى هزًا .

فى مثل هذه الأحوال أتخيل حياتى على هيئة دفاتر مرصوصة فى رأسى، أحيانا تفتح واحدا واحدا، وأحيانا تندلق مرة واحدة وتختلط ذكريات الطفولة بملامح آخر وجه رأيته، والآن أرى منظرى فى شبرا، كنت فى العشرين من عمرى، وكنت عائدا للتو من رحلة عمل فى ليبيا، وكنت أشتغل فى الفاعل وأبحث طوال الوقت عن وظيفة، وكنت أسكن فى أوضة فى عين شمس مع أربعة زملاء من البلد، وكنت أشتغل مع مقاول هدد، ليس هدد وإنما هدد وبناء، لا يشتغل إلا فى البيوت الآيلة للسقوط، البيوت التى شُمِّعت بالشمع الأحمر وصدرت قرارات نهائية بتنكيسها هى صميم عمله، ينحى الشمع الأحمر بلطف يناسب مكانته الرسمية ويتسلل للبيت بكتيبة عمال، فريق يحفر القواعد وفريق يشق الأعمدة والحوائط، وما هى إلا أيام وتتحقق المعجزة، ويصبح البيت المهدد بالسقوط عمارة طويلة ملونة، ومعظم البيوت القديمة فى شبرا ونواحيها تدين له بفضل استمرارها على قيد الحياة .

وأنا كنت أعمل معه بمنتهى الجدية والإخلاص، وكان يقربنى منه ويميزنى عن الأنفار باعتبارى حمار شغل وعينى متترفعش عن الأرض، ولحظة قيام الزلزال الذى رج القاهرة سنة ١٩٩٢ كنت أحفر فى باطن قاعدة تحت بيت من ثلاثة طوابق، ولكنى كنت أشيع حتى للمقربين منى أننى أعمل بالصحافة، وأستغل قصصى المنشورة للتأكيد على أننى أعمل بالفعل محررا بجريدة الأحرار، كنت أحس أنها تناسب ظروفى، وأحيانا أقول أننى أواصل دراستى، وحينما يسألنى أحدهم فيم تدرس كنت أرتبك وأحتار، وحينما عرفت أن هناك شيئا اسمه " معهد النقد الأدبى " أعجبنى جبروت الاسم، النقد الأدبى، وبدأت أقول بزهو إنى أدرس فى معهد النقد الأدبى، وكنت طوال الوقت أبحث عن وظيفة، أى وظيفة، ذلك العمل المحترم الذى يبدأ فى الثامنة صباحا وينتهى فى الثانية مساء، وتقدمت لعشرات الوزارات والشركات والمكاتب فى القاهرة كلها، ومرة تقدمت لمؤسسة ثقافية، كنت أنا وزميل من البلد، وقرأنا إعلانا عن حاجة الهيئة الموقرة لمسئول ثقافى، وزميلى قال "ورينا يا عم الأديب " .

و توجهنا إليها، لم تكن بعيدة، مقر لجنة الاختبار على بعد محطتين من القهوة، والمختبر كان رجلاً مسنا، جثته ضخمة وشعره أكرت وناصع البياض ومكتبه عليه لوحة تحمل اسمه ومنصبه .

كان من المفترض حسب خبرتى أن يختبرنا فردا فردا ولكنه لسبب لا أدريه أوقفنا صفا واحدا وبدأ عمله. كنت أنا وزميلى

وحوالى ثمانية من شباب الخريجين ولكن مكتبه كان واسعا، وبدا وكأنه يبحث عن أسئلة تليق بالوظيفة المنتظرة، تذكرت أو توهمت فيما بعد أن مكتبه كان مزدحما بعدد من الشرائط، كنت الأول فى الصف، زميلى لأسباب ستتضح فيما بعد دفعنى لهذا الموقع، الممتحن كان أمامى مباشرة، كان مزهوا بالاسترخاء خلف مكتبه بينما نتخبط فى بعضنا، وبدا وكأنه يشك فى أحقية أى منا بالوظيفة، كان يجرى الاختبار بكسل من يعرف نتيجته، نظر إلى بعدم اهتمام ثم قال فجأة: " ليّا عشم وياك يا جميل إن بحت بالسر تصونه " وقبل أن أستوعب الأمر باغتنى "مين اللى قال الكلام ده؟"، فانفجرت فى الضحك، سمعت هذه الأغنية مرات عديدة، وأحيانا رددتها بينى وبين نفسى، ولكنى لم أتوقع أن يغنيها رجل بهذا الوقار، ثم إن مطه للأغنية وتقصعه بمياعة وانتفاضه حين باغتنى أو فلنقل طعننى بالسؤال كان شيئا لا يمكن السكوت عليه، حاولت أن أعتذر، كدت أقبل يديه، قلت إننى من الأرياف وأننى تذكرت شيئا مضحكا، ولكنه صمم على إلغاء اللجنة، امتحانى وامتحان زميلى وباقى الإخوة .

لولا عبث هذه الضحكة كنت أصبحت مسئولا ثقافيا مرموقا، كنت أقربهم إليها، كان معى ملف لإنتاجى المنشور فى الصحف، ولكن لا داعى للندم، المسألة أبعد من الضحكة، أنا أرتعب من هذه الأشياء، سحب ملفات والوقوف فى الطابور واحترام الكبير قبل الصغير، كنت أراها مهينة، كنت أحس أننى أتسول، المعمار كان أسهل، كنت أحس أننى لن أنفع فى عمل آخر، وأحيانا أحس أن

اهتمامـــى بالكتابة يعود لهذا السبب بالذات، أنا طبعا أحب النجاح والـــتفوق، ولكنـــى لا أثـــق فى إمكانياتى، أراها محبطة إلى حد كبيـــر، للـــنجاح ثمـــن بـــاهظ والكتابة كانت تمكننى من مواصلة الـــتقاعس عـــن دفعـــه، يبدو أن قدراتى على التعبير خذلتنى كما العـــادة، ولكنى أود أن أقول إن الكتابة كانت تمكننى من الاعتزاز بنفسى حتى وأنا أشيل الطين، مجرد تذكر أنى أكتب القصص كان يعيد الأمور إلى نصابها .

علـــىّ أن أعـــود للموضوع الأساسى، قلت أن هذه الأشياء مفيدة فى التفكير فى الرواية، ولكن أى رواية، خمس سنوات وأنا أخـــرج مـــن روايـــة لرواية، أبدأ فى الواحدة وأفرح بها وتتوالى الـــصفحات طيعة وسهلة وفجأة تنفتح رواية أخرى..، ولكن فلأعد لجـــدى، جـــدى عولة، الرواية وحتى القصة والحكاية الأولى فى حياتـــى، عاش حتى خمسينات القرن الماضى، وكان من أوائل أبـــناء القـــبائل الـــبدوية الـــذين استقروا جنوب الفيوم وكفوا عن التـــرحال والنهب، وفى شبابه كان يحمل " دِجْرة بروحين " ويقود فـــرقة مسلحة للخطف والنهب والثأر للقبيلة من الأعداء، والرجل الـــواحد كان يأخذ فيه اثنين وثلاثة، وحتى اليوم تروى الأساطير عـــن قـــتله وقتلاه، ويقال إنه كان حقانى، يقتل وينهب نعم ولكن حقانى يقول الحق فى عين صاحبه ولا يغدر أبدا، ويقال أيضا أنه كـــان مـــنحوس، ما تسلل إلى بيت أو غيط إلا وانكشف أمره، هو نفسه كان يقول " السريقة اللى نحضرها تخرب "، وحينما استقرت القـــبائل واشتدت يد الحكومة عليهم وراحت أيام الغزو بنى أوضة

على حافة الصحراء الممتدة من جنوب الفيوم حتى أسوان وسماها مكتبا وفرش حصيرة أمامها وجلس ينتظر، وما هى إلا أيام وصارت قبلة للجميع، كل الذين سرقوا مواشى من شمال الصعيد يأتون إليها لكمنها أى إخفائها، وكل الذين سرقت مواشيهم من شمال الصعيد يأتون إليها لاستردادها مقابل " حلوان " ينسلمه جدى عولة ويسلمه للصوص .

طبعا فى البداية كان المكتب يعمل بشكل سرى، وكان جدى عولة يضطر لكمن البهايم فى الغيطان والجبال، ولكن سرعان ما أصبح علنيا معترفا به من الحكومة باعتباره جهة أمنية تعمل على رد الحقوق إلى أصحابها، فذات ليلة سرق اللصوص مواشى عبد الله أبو منصور ابن عم جدى، وهو من أوائل الذين دخلوا المدارس الحكومية فى المنطقة وكان يعمل وكيل محامى بالفيوم، وكان يشتهر بطول اللسان وغرابة الأطوار، وكان يرتدى بدلة كاملة ويدخل النجع راكبا متوسكل، وكان يتكلم لهجة المدينة ويقول " إيه وليه " ويتعامل مع أقاربه وجيرانه باعتبارهم بهايم وحوش .

ونظرا لاعتبارات القرابة ذهب إليه جدى عولة فى بيته، وقال له: " بهايمك عندى .. وهى فى الأمان .. وإن كان الناس بيدفعوا حلوان عشرة انت هتدفع خمسة " وهنا انتفض وكيل المحامى وصرخ: " يا حرامى يا متخلف، انت تحسب البلد سايبة زى زمان ؟ دا أنا هوديك فى ستين داهية "، وتوجه مباشرة للمركز وأسفر عن هويته القضائية وبلغ فى " المدعو عولة أبو

رسلان أبو جليل الذى يسرق المواشى ويهدد الأمن " وجاءت قوة من المركز وقبضت على جدى عولة وأودع سجن المركز، وعاد وكيل المحامى مزهوا للنجع، ولكن فى نفس الليلة تقريبا سرق اللصوص مواشى البيت الملاصق لمبنى المركز، وفتشوا عنها حتى الحفر والشقوق دون أن يجدوا لها أثرا، فاضطر المأمور لاستدعاء جدى عولة من السجن وسأله " تقدر تجيب المواشى " فقال " نعم " وخرج، وثانى يوم كانت المواشى مربوطة فى شباك المركز ... أشعر أن هناك ملفا ينفتح، دائما حينما أتعثر ينفتح ملف آخر .

إنه ملف الكتّاب والأدق الروائيين، دائما هناك روائى فى هذا الملف، روائى أهيم به، وأشعر أنه يكتب عنى شخصيا، وأبدأ فى محاولة تقليده، ثم بعد فترة يترك الملف لكاتب آخر وأبدأ فى الانتقام منه، لا أعرف لماذا أستعذب الانتقام من الكتاب الذين يهروننى. منذ أيام كان هناك روائى لا داعى لذكر اسمه، كنت أحس أننى أعرفه شخصيا، وأبرز ما تركه فى الملف المقطع الذى انطلق منه صوت القتيل أمام القاتل، لا أدرى إن كنت أتذكر المقطع بدقة، كل ما أذكره أنه كانت هناك غرفة بها" تليفون " يتوسط المسافة بين قاتل وقتيل، القتيل ممدد على السرير والقاتل يستعيد ملابسات قتله بهدوء، وفجأة انطلق صوت " التليفون "، دق ثلاث مرات، ثم فتح "الآنسرماشين" وخرج صوت القتيل حاملا الرسالة المعروفة: "أنا غير موجود بالمنزل الآن .. يمكنك الاتصال فى وقت آخر".

أحلام

الدكتور يحلم بانتظام، كل فترة يراوده حلم جديد، وكل أحلامه تحققت، وما المهن التى اشتغل بها إلا أحلام تحققت، ولكنه لم يبالغ، لم يطمع فى تغيير حياته رأسا على عقب، ولكن تحسين ظروفها فقط، بدل " المرمطة " فى المعمار حلم بحراسة عربيات النقل، وبدل السهر يوماتى على حراسة عربيات النقل حلم بالخروج " تبّاعا " على عربية واحدة، وبدل " النومة " فى الطل على عربيات النقل الثقيل حلم بدكة مريحة أمام عمارة الممثلة، وهو أعظم أحلامه على الإطلاق .

اسمه شنهابى، ولكنه مضطر لتوضيح أنه " فى البطاقة سنهابى "، والدكترة طلعت عليه أيام الشغل فى الصيدلية، ومن يومه مليان وأبيض وعيونه خضراء، وحينما يرتاح و" ينضف " تظنه ابن ناس مباسيط، والذين يرونه لأول مرة يغترون فيه، ويمر عليهم موضوع الدكترة، ولى صديق حصيف رآه فى عزبتنا بالجلابية البيضاء والجاكت الشامواه وظنه طبيبا بيطريا. والدكتور سافر القاهرة بدرى، مات والده ولم يواصل تعليمه، خرج من ثانية إعدادى، وحتى لو عاش كان سيخرج، كان مصابا بالربو

ولا يملك من حطام الدنيا إلا " حصيرة سمار " ولحاف و" أوضتين " معرشتين بالبوص، وأنا عاصرته فى أواخر أيامه، وكان جلابية فردة على هيكل عظمى مقوس، وكنت أراه يوميا وهو يتنبك السيجارة ويفعلها على الكوم فى وسط العزبة، وقيل أنه كان يلين بالسيجارة، وأنا أخذت عنه هذه الخصلة، وحتى اليوم لا أدخل الحمام إلا بالسيجارة.

والدكتور دبر أموره مبكرا، ونزل على أبناء أخواله النوبيين واشتغل معهم فى دواليب " نجارة المسلح " فى مختلف أحياء القاهرة، وهاص فى عمارة خالته بالوايلى، كانت تغفر هى وزوجها الصعيدى فيلا لرجل إنجليزى مسن وبعدما مات آلت إليها، واتلمت هى وأبناء إخوتها فى البلد وبنت مكانها عمارة طويلة ملونة، ولكنه لم يصبر على عيشة أبناء أخواله، من يومه لا يرتاح لهم، وجرى على رزقه فى أسواق عمال اليومية على الكبارى والميادين، ويعتبر أول واحد فى عزبتنا يكتشف الشغل فى شبرا ودولاب المعلم مطر، وصحته الجيدة دائما أهلته ليكون أسطى تشوين، رمل وظلط وأسمنت وبلاط، وكان يتمتع بمهارة خاصة فى القيام بمترين من الطوب الأحمر والصعود أعلاها عمارة فيكى يا مصر، وحينما كنت " أشوّن " معه فى بوسطى كان يقطع نفسى، ويعتبر أول واحد فى عزبتنا يشتغل فى أعمال مثل العتالة والنباعة ومسح العربيات وتوزيع شرائط الفيديو والخدمة فى البيوت .

كل شباب عزبتنا، بدون استثناء، وعلى مدى أجيال متعاقبة يسافرون إلى شبرا، المسألة ليست مجرد بحث عن عمل، ولكنها أشبه بتقليد شعبى، خطوة لابد أن يجتازها الشاب فى بداية حياته، استقلال واعتماد على النفس وعودة إلى العزبة بقرشين محترمين، الواحد بمجرد أن يخط شنبه ويحس بنفسه يسافر إلى شبرا، وبالنسبة لجيلى كان السفر إلى شبرا مغامرة تليق بالشاب الجرىء الحرك، وكان عدم السفر إلى شبرا مدعاة للتقليل من الذكاء والتفتح والقدرة على اجتياز الآفاق .

وهم جميعا، متعلمين وغير متعلمين يشتغلون فى الفاعل، أحقر المهن وأصعبها على الإطلاق، ولكنهم يخجلون من العمل بوابين وعتالين وتباعين أو حتى صنايعية فى طائفة المعمار، الواحد يشيل التراب وميشتغلهاش، هكذا يتفاخرون عادة، ومن تضطره الظروف يخفى الموضوع عن أقرب المقربين إليه، أنا عن نفسى كنت أعفر بالأسبوعين تلاتة فى شبرا وحينما أعود للعزبة أحاول بكل الطرق أن أبدو وكأننى كنت طيارا فى مصر، وطوال الإجازة أتقمص منظر مثقف القرية، أصحو متأخرا وأضرب الفوطة على كتفى وأتوجه إلى الترعة رافعا فرشة الأسنان والمعجون باعتبارهما شواهد على على التحضر والثقافة والرقى . والدكتور لم يخجل، واشتغل فى مهن كثيرة، مسح العربيات ووزع شرائط الفيديو وطاف البلاد طولا وعرضا تباعا على عربيات النقل، ولكنه لم يعمر فى شغل، الشغلانة يحلم بها شهورا، أو قل سنين، ويعرف أدق تفاصيلها، ويرى فيها مستقبله،

ويعتبرها حلا نهائيا للمرمطة وقلة القيمة فى المعمار، ويسوق طوب الأرض للعمل بها، ولكن عندما يشتغل فيها ويتقنها كأهلها وأكثر يملها ويبدأ التفكير فى حلم آخر .

حينما وفّق فى شغلانة الحارس الليلى كنا فى بداية الشغل فى شبرا، كنا عمال تراحيل ولكن على " أنضف " قليلا، نسافر مصر ونقضى فترة ونعود، وكنا لا نعرف فى القاهرة إلا ميدان أحمد حلمى وقهوة سالم والبيوت التى يشتغل فيها دولاب المعلم مطر، وكنا ننام فى محل العمل، وفى أوقات مطاردات المعلم على الحساب كنا ننام فى سيارته المازدا الحمراء الربع نقل المصرح بركوب عمال، كنا عادة لا نزيد عن خمسة ستة من شباب عزبة دانيال التابعة لمركز أطسا فيوم، والدكتور بحكم الأقدمية والاستمرار كان قائدنا، كلنا كنا ندرس، وهو الوحيد الفاضى، وكان يجلس معنا على القهوة وينام فى البيوت ويطارد المعلم، ولكنه يركز على المحلات والبيوت والشوارع يبحث عن حل لليومية والبهدلة والشغل يوم والنوم عشرة، وذات صباح، على ناصية شارع منية السيرج من ناحية المبيضة وجد الحل، مكتب لسيارات النقل الثقيل يطلب حارسا ليليا، كنا نشق شارع منية السيرج من أوله إلى آخره حتى نصل لقهوة سالم قبل أن يمشى المعلمين، والمكتب متخصص فى شحنات الأسمنت، وسياراته تجوب من الإسكندرية لأسوان، وكان مكتبا متواضعا، مزياتا، من أول نظرة تظنه ورشة، ولكن الدكتور حلم به كفرصة للخلاص من شغل اليومية وأرفه، وكلما مررنا علية يوقفنا فى عرض

الشارع و" ياسلام لو الواحد يقع فى شغلانة زى دى، مُلك والله، مرتب ثابت يتقبض أول كل شهر وبعدين الشغل فى الليل بس، والنهار بطوله ملكك، تنام تشتغل تبرطع فى الشوارع أنت حر " وذات مرة كانت السماوات مفتوحة، كنت أنا وهو ونفرين م البلد وقرأنا معا على الباب الصاج " مطلوب حارس ليلى لسيارات النقل "، لم يكن المكتب قد فتح ولم يكن هناك خفير للسيارات، وانتظرنا مع الدكتور حتى جاء أحدهم، وتقدم وقبل واستلم .

المكتب يمتلك حوالى خمس سيارات " إسكانيا " كبيرة بمقطورة، بعضها يوصل شحنات لمختلف أنحاء مصر، وبعضها يبيت أمامه، ومهمة الدكتور حراسة عربيات المبيت طول الليل، ومحل عمله تحت إحداها، وكنا نقابله يوميا وهو خارج يتمطع من تحت إحدى السيارات ونحن نجرى على القهوة حتى نلحق المعلمين. ومنذ البداية وقع الدكتور على طريقة لتحسين ظروف عمله، كان من المفترض أن يسهر طوال الليل على حراسة عربيات النقل، ولكنه نام .

شارع منية السيرج، خصوصا من ناحية دوران شبرا مسكون بالكلاب الضالة، تجدها تمدد أرجلها الأمامية وتغط فى نوم عميق، والدكتور استغلهم، كل ليلة يشحت حزمة من أرجل الفراخ من فرارجى الناصية ويربط عليها كيس بلاستك أو ورق المهم خشن، ويركنهم جنب رأسه وينام، وعلى ما يحس بحركة فى الشارع يمد يده وهو نائم ويهز أرجل الفراخ، يشخلل بها، فتنطلق ناحيته كل كلاب الشارع وهى تنبح، ويتجمهرون حول

السيارة التى ينام تحتها فى مظاهرة كلابية صاخبة ترعب أى مار بالشارع، ويفر مسرعا قبل أن تلتهمه الكلاب، ويركن الدكتور أرجل الفراخ ويواصل نومه وتنسحب الكلاب إلى مواقعها .. وهكذا حتى الصباح، وما هى إلا أيام وتأقلمت الكلاب، وتوطدت علاقتها مع الدكتور، وعرفت المطلوب منها بالضبط، وبمجرد أن تتشمم طيفا بالشارع تطلق عقائرها وتهاجمه حتى ينقذه الدكتور، والحقيقة أنه استغل هذا الموضوع أسوأ استغلال، وكان يتعمد التباطؤ فى إنقاذ المارين بالشارع حتى يموتوا فى جلدهم، تخيل نفسك وحيدا فى عز الليل فى مواجهة جيش من الكلاب ينقض عليك من كل جانب، المنطقة ضجت، وسرى بين السكان ما يشبه الاتفاق على حظر التجول فى شارع منية السيرج بعد العاشرة مساء، والدكتور نام، نام وشخر، عوض أياما وشهورا، نفس الأماكن التى لم يجد فيها مكانا حتى لقضاء الحاجة، أصبحت ملكه، من حقه النوم فى أى مكان .

ولما شبع من النوم رفع عينه فى الشارع، ولاحظ أنه غير محل حراسته هناك طابور عربيات يمتد من أوله إلى آخره، ولم يستشر أحدا، وبدلا من الصياعة على قهوة سالم سحب فوطة واعتمد على بديهة أنه مش معقول هتمسح عربية أى بنى آدم طول الشهر وهيسيبك كده، وانهمك فى المسح، ومع طلوع الشمس يكون انتهى من عربيات الشارع من أوله لآخره، ونضف وتورد وتخن وطار صيته فى الشارع والمنطقة، وليله نفسه اختلف، بدلا من النوم على قفا الكلاب صار سهرات ممتعة فى متابعة أحوال

الجيران، الدكتور أحيا عادة قديمة، فى العزبة كانت متعتنا التلصص على العرسان فى أول ليلة، أى عرسان، عرب وفلاحين، نتسلق على شبابيكهم ونطّلع على كل شىء، وكم قضينا ليال ممتعة فى ضيافة الدكتور، كان فى مواجهة المكتب شقة يسكنها زوج وزوجة غريبى الأطوار، فى النهار بيه محترم وهانم محترمة، وفى الليل مسخرة، يمارسان الجنس يوميا وبمنتهى العنف، أنا رأيتهما مرة، الحقيقة مرات، وكنت لا أتمالك نفسى وأنهار بينما هو يواصل بإباء وصلف .

الدكتور عاش شهورا بين الحراسة والمسح، ولكن صاحب مكتب العربيات بدأ يضيّق عليه، وقف له فى موضوع المسح، وحذره أكثر من مرة من استغلال المكتب، وأن يحافظ على شغله بدل ما يرجعه لمرمطة المعمار، وأضاف له مهمة جديدة؛ فى الليل يحرس العربيات وفى النهار يغسلها. وذات صباح، بينما الدكتور يلم فراشه من تحت إحدى عربيات المبيت، وصلت عربية " اسكانيا " بمقطورة من السويس، ونزل منها تباع يترنح، سكران طينة، وفى يده زجاجة بيرة، والدكتور حسبها بسرعة، صاحب المكتب لا يطيقه، وبالتأكيد " العتّال " الذى يجد ما يشرب به حتى يسكر دخله أفضل من الحارس الذى يأكل بالعافية، ولم يضيع الوقت وفاتح صاحب المكتب " أنا عايز اشتغل على عربية "، " عتال يعنى ؟ "، " أيوه "، " طيب وانت تعرف العتالة، اشتغلتها قبل كده ؟ "، " اللى عايز يتعلم هيتعلم "، " أنا مشغلك غفير بالعافية، وبقول أهو غلبان ويسترزق، لكن عشان لماضتك دى

هشغلك عتال، وإن نفعت نفعت، وإن مانفعتش تورينى عرض اكتافك ومش عايز أشوفك فى الناحية كلها "، واختفى الدكتور من الشارع، اختفى فجأة دون أن نعرف، وصاحب المكتب قال لى بشماتة " انكشح على عربية أسمنت رايحة أسوان " .

واحد ملكي

قعدت وسط بقايا نقلة الرمل، كانت على شكل دائرة، وتربعت، ونظرت إلى أعلى، وتمطعت، طلعت ونزلت العمارة مية وأربعين مرة، سبعة طوابق على شقتين، وسكانها متعاونون، مدّوني بزجاجات الماء المثلج طوال النهار، وتفهموا الأمر عندما دلقت إحدى الشكاير على السلم، كانت ثقيلة، ولم أقدر على الصعود بها حتى السطح،، ورميتها على طول يدى، أول مرة أشوِّن نقلة رمل وحدى. منذ البداية فضلت تشوين الرمل، الرمل أنظف، بمجرد أن أستحم لا يبقى أى دليل على أنى أعمل فى الفاعل، ثم أن أجْر تشوين نقلة رمل واحدة كان يكفى للنوم أسبوعا.. تنحنى فوق الشيكارة وتنظفها برفق، ثم تضغطها فى حضن تنفرج له ساقاك، وصدرك يستعد لمضاعفة قدراته على سحب الهواء، ثم تركنها على ساعدك وتستريح وتتنهد وتقول هه أو أف وتنفضها على كتفك .

ولكنى كنت أشتغل بنظام البوسطى، أنضم لثلاثة أو أربعة أنفار، ونقسم العمارة، كل واحد يصعد دوراً أو اثنين ويسلم زميله، وأول مرة أعمل بنظام السفرى، الصعود بشيكارة الرمل

مــن الأرضـــى حتــى السطوح، متر الرمل، بالميت، به عشرين شــيكارة ع الدبوس، والشيكارة تزن ستين كيلو، وأنا رفعت سبعة أمتار لسطوح الدور السابع، حتى اليوم أعتبرها معجزة .

تأخرت، وصلت القهوة حوالى الساعة التاسعة، وطلبت شايا، وســمعت مــن ســالم نــشرة الأخبار، الجميع، أنفاراً وصنايعية، خرجوا مع المعلم مطر لصلب بيت فى جزيرة بدران، وفكرت أن ألحقهم، جزيرة بدران على بعد خطوات،، وهى بالمناسبة مشهورة بكثــرة الــشوام، أشهر شوارعها اسمه قصور الشوام، ومطر لن يمانع، الساعة التى تأخرتها سيعوضها ساعات ولكنى تكاسلت، أو قــل خجلت، ليس من اللائق لكرامة الواحد أن يفرض نفسه، مطر رآنــى، فــى الــصبح والليل، ولو كان يحتاج أنفارًا لبيّت علىّ، وبــدأت أتهيأ لضياع اليوم، وفكرت فيما أنوى عليه، ووجدت أنى لا أنــوى علــى شــىء محدد. أسكن فى عين شمس، وأعمل فى الفاعــل وأنتظر، وفاضلت بين زيارة عم أحمد عند نصبة الشاى فـــى التحرير، وحضور ندوة أدبية فى الجيزة، واخترت زيارة عم أحمد، الندوة مازال عليها ساعات، ثم إننى يمكن أن أحضرها بعد زيــارة عــم أحمــد، وتحسست حساب الشاى، وهممت بالتحرك ناحية موقف الشيخ رمضان، ولكنى قلت أنتظر قليلا، دخل القهوة واحــد ملكى، كنت أعرفهم من مشيتهم؛ حذرة ومترددة ومترفعة فـــى نفــس الــوقت، ولقــبهم ملكى يعود لأنهم من خارج طائفة المعمــار، ناس عاديين، موظفين ناصحين يفضلون ترميم أو حتى بــناء بيوتهم بأيديهم، وأعمالهم فى الغالب مريحة، مرمات، تكسير

مطــبخ أو حمــام أو تنــزيل عفــش، وكانوا يعاملوننا كضيوف، ويعتنون بنا طول النهار، ويقبضوننا يوميات مجزية، ولكنى كنت أنقــبض مــن العمل معهم، إحراج، كنا نشتغل فى البيوت، وسط الأســر، وكــنت طــوال النهار أحاول أن أفهمهم أننى لست كما يظــنون، أشــتغل نفر وأوحى لهم بأننى لست نفرا، أدعم كلامى بألفــاظ فــصيحة مــن النوع الذى يتداوله ذوو الثقافة والمعرفة، وأحــيانا أصــدح بالأشــعار " رفرف القلب بجنبى كالذبيح / وأنا أهــتف ياقلب اتئد / فيجيب الدمع والماضى الجريح / لم عدنا ليت أنّــا لــم نعد " أو " بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا / شوقا إليكم وما جفــت مآقيــنا / تكاد حين تناجيكم ضمائرنا / يقضى علينا الأسى لولا تأسينا "، بعضهم كان يمتعض ويتأفف، وبعضهم يبدو كما لو أنه يتفهم الأمر .

الملكــى الــذى انتظــرته كان طويلا، ويرتدى بدلة سفارى خــضراء، وحيــنما بدأ سالم يرشحنى له حاولت أن أتشاغل بأى شــىء، نظــرت فى الأرض وتطلعت إلى الشارع وحييت واحدا دون سابق معرفة، كنت أنقبض من انتظار هؤلاء الناس، أنا أيضا "ملكى "، وفى يوم ما سأشغل وظيفة، وسالم قال إننى حمار شغل، وإننــى مؤدب، عينى متترفعش عن الأرض، وهز رأسه، واقتنع، واقتــرب منى، الملكى اقترب منى، " أنت نفر " " لأ "، قلتها فى ســرى، وكدت أعلنها ولكنه دخل فى الموضوع " هى نقلة رمل، ســبعة متــر، هــتطلع الدور السابع، وانت حر، هتطلعها لوحدك طلعهــا، هــتقاول عليها وتجبلك نفرين م السوق معندناش مانع "،

وكرهته، وعزمت على المبالغة فى الأجر، وإن وافق وافق، وإن لـــم يوافــق فى ستين داهية، قلت " المتر بسبعة جنيه وسبعة فى ســبعة بــسبعة وأربعين " وقال "قصدك تسعة وأربعين وجنيه من عــندى وتبقـــى خمـــسين مقفــوله "، واحترت بين الفرح بكرمه والــضيق مــن كرمه، وندمت على أننى لم أبالغ أكثر، وخرجت خلفه، ومررنا من أمام جامع الشيخ رمضان، وتخطينا بركة ماء، وعديــنا على الموان واشترينا شكاير، حوالى خمسين أو ستين من فــوارغ الأســمنت الأبــيض، كنت أفضلها على غيرها، صنعت خصيــصا للتــشوين، بيــضاء ونظيفة ومكونة من طبقات ورقية مريحة للكتف، وتتشرب العرق، ولا تبلى بسهولة، وتتسع لحوالى شيكارتين من فوارغ الأسمنت البروتلندى العادى .

حملــتهم، الخمـــسين أو الستين شيكارة طويتهم تحت باطى، ودخلـــنا شارعا ضيقا ووقفنا أمام نقلة رمل، وأشار لسطح الدور الــسابع، وحذرنـــى من مضايقة السكان، وناولنى الخمسين جنيها وانصرف .

حمدي

صنايعية دولاب سيد مطر من نواحي منية السيرج وشبرا بشكل عام، أحيانا كان ينضم إليهم صنايعية من الأقاليم، من الصعيد أو الدلتا، ولكنهم كانوا يطفشونهم، يستخفون بهم ويضيّقون عليهم حتى يرحلوا، وكنت لا أحب الشغل معهم، على سهولة تشغيل مبيض أو مبلط أو سباك كنت أفضل تشوين الرمل والظلط والأسمنت وحتى طبلية الخرسانة على الشغل معهم، كانوا إلا من رحم ربى قلالات أدب، على أى شيء: يا خول يا عرص يا ...

لكنى صاحبت أحدهم، كان مبيض محارة واشتغلت معه أياما وشهورا، وكنت أنزل عليه مباشرة فى أوضته القريبة من القهوة، ونفطر طعمية سخنة مسمسمة ونضرب السيجارتين ونطلع على الشغل سواء كان عمارة للمعلم مطر أو مرمة خطفها على جنب، والشغل معه مريح جدا، أشبه بنزهة أو حتى مسرحية مضحكة، أولا هو كسول جدا، ومقدار المونة الذى ينجح فى تثبيته على الحيطة لا يقارن بمقدار الذى ينتره على وجهه وملابسه وعيونه نفسها، والمعلم كان لا يعتمد عليه إلا فى الأماكن الضيقة المهملة التى لا يهتم الزبائن بإتقان محارتها ولا تستلزم مهارة خاصة

وإنما حشرة فى مكان ضيق -وياحبذا لو كان خانقا- كالعفش أى الحمامـات والمطابخ والبدرومات وسلالم العمارات، وكنت أعجن لـه شيكارة أسمنت واحدة، مقطوعية المبيض المتوسط الحال فى دولاب مـضبوط كدولاب المعلم بكر خمسة شكاير وأوضة أربعة حـيطان فى اليوم، وهو كان يغرق ويبلبط فى شيكارة واحدة وفى العادة لا ينهيها وأتولى دفن الباقى بعيدا عن عيون المعلم مطر .

وأول مـا جذبنى إليه اسمه، اسم غريب ملتبس وغير مفهوم، مـرة عبرت عن مشاعرى تجاهه فى قصة قصيرة، ليس حمد أو حامـد أو حميد وإنما حمدى، كلمة لا تعرف لمن تنسب لقائلها أم لحاملهـا، ومعظـم الذين عرفتهم يحملونه كانوا مجانين أو معاتيه بـشكل مـا، حمدى جارنا فى العزبة يشتهر بأنه مطرف، عضوه طويل، قيل إنه كان يسند رأسه على طوبة حينما يبول، ومعروف طـبعا أن المطرفين معرضين دائما للاتهام بالجنون، لا تعرف إن كـان حـسدا أو انتقاما أو إيحاء بأن مسألة قصر العضو -مشكلة الرجال على مر العصور - طبيعية وإن المطرف مجنون أو على الأقل معتوه، وحمدى الذى عرفته فى الغرق فى ثانوى واعدادى، كـان مجنون رسمى، كان اسمه حمدى العبيط، هو نفسه معترف بـذلك، مـرة أوقفنى فى الشارع، ووضع يده على كتفى وقال لى بينما رزازه يتطاير على وجهى " حمدى العبيط بيقولك ... أمك "، كنت أرتعب منه، كان فى الخمسينيات، وكان يطفطف على لحيته وكان يركب بوصة ذرة أو عباد شمس ويقودها باعتبارها سيارة، ويزمر ويحود ويكبس على الفرامل لإنقاذ الناس والبهايم .

فــى الأول كـــنت كلمـــا أرى حمدى شديد على القهوة أتذكر حمدى المطرف وحمدى العبيط، وأعقد مقارنة سريعة، كان أقرب لحمدى العبيط فى الامتلاء، التخن والتهتهة وعدم الاعتناء بلحيته، لم تكن طويلة أو قصيرة، فقط لحية شخص أحواله ليست على ما يرام، وكان يشبه حمدى المطرف فى الانعزال والرضا بالنصيب. أحـــيانا يـــشتغل مبيض محارة، ولكن لم يكن يختص بعمل معين، كـــان يعمـــل كل شىء، نفر وصانيعى فى نفس الوقت، يفهم فى البـــياض والنقاشة والسباكة ويشيل لو هيتشال طوب، كان يعرف مهامـــه بالضبط يخرج فى الصباح للحصول على اليومية ويعود فى المساء باليومية .

قصة العائلة

مرات كثيرة أحاول كتابة قصة العائلة، وفى كل مرة أفشل، وهـا أنـا أفـشل أمامـك الآن، الموضوع مسل، مآس وطرائف وأساطير؛ ولكنـى أتردد وأخاف، أول ما يصعّب الموضوع أن عـددها كبير، وبين كل فرع وآخر تباينات حاسمة، على مستوى اللـون فـيهم البياض الأوربى والسواد الأفريقى، ثم إنهم عموما حانقـون ورغايـون ولا يعجبهم العجب. سنة ١٩٩٧ كتبت قصة بائـسة عـن شهيدهم معوض أبو جليل، المقدم الذى اغتيل أثناء الانتفاضة الفلسطينية فى رفح، فأقاموا الدنيا، أحدهم بدأ فعلا برفع دعوى قضائية ضدى، وكثيرون قاطعونى، بعضهم لا يسلّم على حتـى الـيوم، وهربا من المشاكل والألسنة وطبعا الفشل المتوقع سأكتفى بالتاريخ، الوقائع المتفق عليها؛ لعلها تشجعنى - ويا حبذا لـو شجعتك أنت أيضا - على تلقى ما منعنى الخجل وقلة الحيلة من إطلاعك عليه.

عائلـة أبو جليل تنتمى إلى عرب الرماح، وقيل إنهم يلتقون مـن فوق بعرب الفوايد، ومنهم القاضى بدير فى السيرة الهلالية، والملفـت أن بعـضهم يشبهه، خصوصا من حيث اللؤم والخوف

والـــبلعطة، أمـــى تصف أحد أعمامى بالقرموط، تقول "مبلعط ما تعرفش تمسكا".

وتـــتكون مـــن تسع بيوت أو فروع، وكتلتها الأساسية تعيش الـــيوم فى تسع عزب صغيرة تمتد على حوالى ثلاثة كيلو مترات جـــنوب الفـــيوم، والعـــزبة الأخيرة منها تقع على حافة الصحراء الفاصـــلة بـــين الفيوم ومحافظتى المنيا وبنى سويف، ومنها سبع عـــزب تحمـــل اسم أبو جليل وتدين بالسلطة لأحفاده، وهى على التوالـــى: عـــزب عطية أبو جليل ومحمدين أبو جليل وعبد القوى أبو جليل وسلطان أبو جليل وعبد الغنى أبو جليل ومفتاح أبو جليل وصـــقر أبو جليل، وبها ست بيوت تحمل لقب العمودية، منهم من يمـــارس العمـــودية فعـــلا ومـــنهم من حازها يوما هو أو فرعه ويتحرك بوجاهة اللقب .

وبالمناســـبة عمدهم غلابة، على قد حالهم، ويعتبرون "غفر" بالنسبة لعمد المسلسلات، وأحدهم بيته معرّش بالبوص حتى اليوم، ومنهم ثلاثة كانوا من مشاهير العمد بين القبائل البدوية فى مصر وليبـــيا، العمدة عبد الحليم الذى كان يفض منازعات القبائل الليبية فـــى عـــز الصدام المسلح بين السادات والعقيد معمر القذافى فى الـــسبعينات، والعمـــدة علـــى أبو يوسف شقيق د. أبوبكر يوسف متـــرجم مخـــتارات أنطـــوان تـــشيكوف ومـــراجع تـــرجمات دوستيوفـــسكى، والعمدة عبد الحميد عبد الرازق الشاعر صاحب قصيدة الرثاء الطويلة فى الرئيس جمال عبد الناصر.

والغالبـــية العظمـــى فقـــراء، يعيشون بالعافية، ومنهم شباب يعملـــون الآن "بوابـــين وغفـــر" فـــى عمـــارات القاهرة الحديثة

وخصوصا في فيصل والهرم، أنا نفسى أشتغل نفرا فى شبرا ونواحيها، والمباسيط يعدون على الأصابع، ولكن عددها كبير، على مستوى العدد تعتبر أكبر قبيلة بدوية فى الفيوم، أبو جليل الكبير خلّف تسعة والتسعة خلّفوا عشراتٌ والعشرات خلفوا مئات حتى وصلنا إلى الجيل الخامس، وهو بالمناسبة جيلى، اسمى بالكامل: حمدى أبو حامد عيسى صقر أبو جليل، وجدُّنا جاء من ليبيا، ونزل على البحيرة وجاور أبناء على فى صحارى مطروح ورحل إلى الشرقية، وهناك أسطورة عائلية تقول إن كفر صقر بالشرقية ينسب إلى صقر أكبر أبناء أبو جليل.

وفى النهاية استقر جنوب الفيوم فى تهجير معروف هدفه توطين البدو والخلاص من تنقلهم وهجومهم المستمر على المحاصيل والقرى، وهو تهجير سنّه محمد على باشا فى بدايات تأسيس مصر الحديثة، وأخذ عدة إجراءات لضمان عدم تمرد البدو عليه، منها منحهم أراض زراعية معفاة من الضرائب، ومنها إعفاء أبناء القبائل البدوية من الخدمة العسكرية فيما عرف فى الوقائع المصرية باسم "امتياز العربان" وظل هذا الامتياز ساريا حتى ألغاه جمال عبدالناصر سنة ١٩٥٤، وأول من دخل الجيش من العائلة هم مواليد ١٩٣٥.

غير أن استبعاد محمد على باشا للبدو من الخدمة فى جيشه له سبب آخر، أقرب لعدم الثقة والخوف، البدو قبله كانوا يحاربون مع الأمراء المماليك، ليس كجنود نظاميين ولكن كفرسان مهرة يحاربون من أجل أهداف ومصالح شخصية، وكل مؤرخى الحملة

الفرنسية وصفوا الفرسان المهرة الذين كانوا من أشرس مقاومى الحملة، والمؤرخ "كرستوفر هيرولد " صاحب كتاب "بونابرت فى مصر" قال أن الحملة الفرنسية نزلت الإسكندرية وانقسمت فى فريقين أو جيشين واحد اتجه ناحية مدينة رشيد والآخر اتجه إلى مدينة دمياط، والذى اتجه إلى رشيد قوبل بالطبل والزمر والأفراح والليالى الملاح، والذى اتجه ناحية دمياط وقع فى القبائل البدوية، وكان جيشا جرارا يمتد فى طابور طويل من الأسلحة والمعدات والبشر والمواشى، ووقف له فرسان البدو فى طابور آخر، خمسين أو ستين فارس يهجمون على الجيش كرا وفرا، وفى كرهم وفرهم كانوا يخطفون أسلحة ومعدات وأمتعة وأيضا جنودا أحياء، رجالا ونساء، وما استغربه كرستوفر هيرولد أنهم أكرموا النساء جدا وتركوهن معززات مكرمات فى الخيام وناموا مع الرجال، اغتصبوهم اغتصابا، وقال ساخرا أن أحدهم عاد إلى القائد بونابرت مبهدلا فسأله ماذا حدث لك فطأطأ رأسه وسكت فصرخ فيه " انطق أيكونوا ... " فانهار فى البكاء . ومحمد على لم يأمن جانبهم، خاف من ولاءاتهم القديمة ومن عدم استعدادهم بالمرة للانتظام فى جيش نظامى حديث.

والحقيقة أننى لا أعرف الكثير عن أبوجليل الكبير، لا أعرف أوصافه وخصاله ولم أعاصر أحدا رآه، ولكنه كان يتيما، مات والده وربما قتل وهو طفل، وكان يلقب بـ" أبو حزينة " نسبة إلى أمه " حزينة "، واسمه أبوجليل أطلق عليه وهو كبير كعادة البدو، وهو مشتق من " الجلال "بكسر الجيم وهو غطاء صوفى يشبه

العـبابة المغـربية، وقـيل إنــه كان وهو صبى يرتعد من البرد ويصرخ " يامى هاتيلى إجلال " ومن يومها طلعت عليه .

وأبـو جلـيل استقر جنوب الفيوم، ونابه من امتياز العربان حوالـى ثلاثمـئة فدان من أجود الأراضى ولكنه لم يزرعها أبدا، وظل عمره يسرح فيها بإبله وأغنامه باعتبارها مراعى، ووصفه " تعداد الأنفس " الذى أجرى على عربان المنطقة سنة ١٨٥٤ بأنه شـيخ عربـى فـى الرابعة والثمانين من عمره ولديه تسعة أبناء أصغرهم خليفة عمره سنة .

وسمعت روايتين عن أسباب رحيله، والأدق ترحيله من ليبيا، الأولـى تتعلق بأحوال الطقس، الجفاف الذى داهم السهول الليبية، والثانـية تـتعلق بأحـوال العار، عار غامض، عقابه التغرب أو النفـى، وهـو عقـوبة معروفة بين القبائل العربية منذ الجاهلية الأولى، يجتمع المشايخ ويحكمون على الشخص بالتغرُّب، الرحيل عـن المكان، وأحفاد أبو جليل يطبقونها حتى اليوم على جيرانهم، يقولون للشخص أو البيت "شيل" أى لم "اعزالك" وارحل إذا تطاول أو ارتكب خطأ مخلا.

وأبـو جليل جاء للفيوم شابا، ونزل على الباسل، وهو رمحى مـثله، وصاحب شأن وعزوة فى المكان، كان يملك مئات الأفدنة ويحـوز مشيخة القبائل البدوية فى جنوب الفيوم، واطمأن للشاب الرمحـى المتغرب، وزوّجه ابنته غالية، وهى فى مقام عمة حمد باشـا الباسـل، وأنجـبت أبـناء أبو جليل الكبار: صقر ورسلان وضـيف الله، وتزوج عليها "فلاحية" من ترسا أنجبت باقى أولاده

التسعة، وحتى اليوم يتفاخر أحفاد الثلاثة الكبار؛ أبناء غالية، على أحفاد الستة الصغار؛ أبناء الفلاحية، يعايرونهم بأخوالهم، وللأسف الذى فلح أحفاد الفلاحية، ملكوا مئات الأفدنة وبلغوا أرفع المناصب بينما أحفاد غالية وهم أهلى "أب وأم" معظمهم غفر.

حكاية زواج أبو جليل من غالية الباسل يؤكدها أحفاده حتى اليوم باعتبارها حقيقة لا يأتيها الباطل، غير أن أبناء عائلة الباسل يشككون فيها أو على الأقل لا يعرفونها، وحينما سألت المرحوم أبو بكر الباسل نائب دائرتنا فى الفيوم ورئيس لجنة الزراعة السابق بمجلس الشعب بدا وكأنه يسمع هذا الكلام لأول مرة، ومن باب الإحراج قال "يمكن مش بعيد"، ولكن المؤكد أن حمد باشا الباسل عاد من منفاه مع الزعيم سعد زغلول على مندرة ياسين أبو جليل، وأن أحفاد أبو جليل المباشرين هجموا على مراكز الشرطة ودمروا السكة الحديدية أثناء ثورة ١٩١٩ لا لشىء إلا الثأر لابن عمهم، وأن عولة أبو رسلان ضرب ضابط النقطة بهجار أى قيد الحصان وربطه فيه، وأحدهم استشهد برصاص الإنجليز، وستة قبض عليهم ودخلوا السجن وكتبوا أشعارا فى السجن، وأن ياسين أبو محمود كان عضو مجلس الأمة الذى تحدى الإنجليز واجتمع فى فندق شبرد بالقاهرة بعدما حلّته سلطات الاحتلال، وهناك أسطورة عائلية تقول إنه بطل فيلم "فى بيتنا رجل"، فهو مثله بالضبط: هرب من البوليس السياسى فى أحداث الثورة واختبأ لدى أسرة قاهرية فى " السيدة زينب " وتزوج ابنتهم وأنجب منها ولدين.

أمدّ يدى وأحرج من مدّ يدي

لحظـــة الاهتزازات الأولى لزلزال ١٩٩٢ كنت فى بطن قاعدة. كانت مترين × مترين بعمق متر ونصف تحت بيت متهالك، وكان معـــى الدكتور، أنا أحفر وأملأ الغلق وأناوله له وهو يرميه على الكـــوم بالخارج، وداخلها لم أشعر بهزات الزلزال الذى رج مصر كلها، كنت أعمل بمنتهى الجدية والإخلاص بينما الناس يفرون من الموت، وداخلها أيضا عشت تجربة عاطفية. أنا أضعف من تحمل رفـــض البنات اللواتى أحببتهن فى صمت، وكنت أواجه حرمانى بالتـــرفع علـــيهن، برفض الموضوع من الأساس، بتجاوز مراحل كثيرة ورفض شيء أعرف أنه بعيد عن شواربى، وفى بطن هذا البيت عشت تجربة تناسب ظروفى.

البـــيت ملـــك لزوجين أذكرهما بكل خير، فى النهاية لابد أن تقدر شخصا رأى فيك زوجا صالحا لابنته، بالنسبة لهم لم أكن نفر عـــادى"، كـــنت "نـــسيب محترم"، الزوجة بالذات انفعلت بنموذج الـــشاب المكافح، والدكتور أكده بروايات وقصص تخص وضعى وثقافتـــى . فـــى الحقيقة كنت مزهوا بمنظر الشاب المكافح، وفى نفـــس الـــوقت كنت لا أقبل التضحية بالانتماء لعائلة كبيرة. كنت

أكــذب بمــا يتناسب مع الحفاظ على درجة إعجاب الناس بشاب يكــافح، ولكنى كنت أرتبك حينما أضبط نفسى منهمكا فى محاولة الجمــع بــين وجاهــة عائلتــى وعملى فى المعمار، القصة التى اعــتمدت علــيها لم تكن مقنعة حتى لى، كانت إجابة خائبة على سؤال لم يوجهه أحد، سؤال عرفت فيما بعد أنه لا يشغل غيرى " لماذا غادرت النجوع"، كنت أحكى قصة طويلة خلاصتها أن أهلى ملــوا منى، من تمردى وقرفى من الحياة الآمنة بينهم، غيابى فى القاهــرة كــان بالنــسبة لهم نوعا من الضياع، وعندما " زهقوا " وضــعونى أمــام الاختــبار الصعب: إما أن تعيش فى النجع كما الــناس وإمــا تفارقنا . أنا بالطبع اخترت ما يليق بأديب مخلص، الأفضل أديب فقط، فحينما تصل الحكاية إلى علاقتى بالأدب كنت أقلــل من شأن الموضوع وأتعمد السخرية منه، صحيح أننى كنت لا أفــوّت فرصــة للــزهو بإنتاجى الأدبى المنشور، ونجحت فى توريط الجميع فى اسمى المطبوع فى الصحف؛ أرمى الجريدة أو المجلــة بإهمال بينما أخلع ملابسى استعدادا لبدء اليومية، وبمجرد أن تلــتقطها الــضحية سواء كانت المعلم أو صاحب البيت أو أى شخص عابر – أقول بخجل يناسب نفر عادى " على فكرة أنا لى حاجة "، وتسأل الضحية باندهاش " حاجة .. حاجة إيه ؟" قصدى منشور لى حاجة " وعادة كنت أظفر بنظرة الإعجاب، ولكنى كنت أحــس بأنى دخيل على الموضوع، الأديب شخص آخر، شخص غيــر عــادى، والاســتهانة بالأدب كانت مخرجا ملائما لتبرير كتاباتى، لجعلها مقبولة لى وللآخرين .

البـــنت رســـبت فى الإعدادية هذا العام، عام الزلزال طبعا، وفازت بطيبة أمها . جميلة، ولكنه جمال فاضل، كسول، ملامحها متـــراخية، كانـــت تـــبدو كمـــا لو أنها مجهدة، وأنا أعجبنى نتوء صدرها ولكنه كان أشبه بغريبٍ تائه وسط صحراء، البنت كعينين ووجه وجسد كانت فى وادٍ ونتوء صدرها فى وادٍ .

فى السكن، أوضة عينٍ شمس، كنت أفكر فيها، أتوقف طويلا أمام تلك الانحناءة التى تسمح باقتراب صدرها، كنت داخل القاعدة لا أرى إلا بــروزه، وكــنت أتــباطأ وأبدو كما لو أننى لا أطول الـــصينية حتـــى يكمـــل استدارته أمام عينى، وطالما تخيلت أنى اقتنصته، أنى جذبتها فسقطت فى حضنى، مسألة زنقها فى باطن الأرض كانت تهيجنى على نحو خاص، فى الأوضة كنت أستعيد كـــل شـــىء: القاعدة المحفورة تحت الجدار وأنا داخلها بينما هى منحنـــية حتى تمرر لى الشاى من تحت الجدار، ولكن حينما كنت أصـــل إلـــى حركة جذبها كنت أنتبه على ما يشبه المعركة، كانت تتملص منى، كنت أتخيلها وكانت تتملص منى فى الخيال، تصبح فى منتهى الشراسة.

حسب خطة والديها كانت تأتينى يوميا بصينية الغدا وشايين أو ثلاثـــة، وتظـــل ترقبنـــى داخـــل الحُفـــر أو القواعد مدة كافية للملاطفة، كانت تأتينى مستعدة، أحمر وأبيض وحزام محبوك على وسطها، ولكن لا تتكلم، كانت فقط ترمقنى بنظرة العارف ببواطن الأمور، وعلى فترات متباعدة كانت تغمز لى، لم يكن غمزا على وجـــه الدقة، كانت حركة متشنجة تناسب شخصا انتبه أنه مطالب

بفعـــل شــــيء، تغمض عينها اليمنى أولا، ثم كطفل انتبه إلى أنه حـــشر قدمـــه في الفردة الخطأ من الحذاء تفتحها بسرعة وتغمض عينها اليسرى بإصرار ثم تفرجها بابتسامة أقرب للتقريع .

كـــنت محرجا من موضوع الصواني، يوم لحمة ويوم فراخ وأحـــيانا ســـمك، أصحاب البيوت كانوا لا يبخلون علينا، أطعمة ومـــشروبات وخيـــر وفيـــر، وكنت دائما أحرج من عطاياهم، لم أرفـــضها أبدا ولكني أقبلها بحرج، أضع وجهي في الأرض بينما يـــدي تمتد لصينية الطعام، يمكنك أن تعتبرها رغبة في التوازن، أمـــد يدي وأحرج من مد يدي. وبالنسبة للبنت كانت هناك أشياء أهم، كانت نقلة مؤثرة، هي الوحيدة التي أنجذبت إلي، نظرت إلي بإعجـــاب لا لبس فيه، ولكن وضوح المسائل أربكني، لم أجارها أو حتـــي أطمئـــنها على أنها تسير في الطريق الصحيح، حاولت وفـــشلت، كـــنت طوال القصة مشغولا بمنظر آخر، كنت أحاول إتقـــان دور الـــشاب الجاد، المؤدب، أبدو في منتهى الوقار لحظة وصـــولها بـــصينية الطعام، لحظة الارتباك العظيم الذي لا يرجع لخجلهـــا منـــي أو خجلـــي منها، ولكن لخجلنا معا من الموضوع برمته.

"القاعـــدة انـــتهت" هكـــذا بشرت الدكتور وأنا أناوله "الغلق" الأخيـــر، لـــم يـــسمعني، كان يرتج في عالم آخر، مال على في القاعـــدة واندفع خارج البيت وهو يلهج "يا ساتر يا ساتر "، ولكنه عاد ملهوفا وحشر رأسه مرة أخرى في القاعدة حتى كادت تندفس في الغلق ولاذ بالفرار.

ظننت أنه خطف سيجارة ع الماشى، أحيانا يفعلها، أنا شخصيا أفعلها، وتركت الغلق يسقط فى قاع القاعدة وتحاملت بيدى على حافتها، كنت أتوقع مشروع الزواج ينتظرنى بالشاى كما العادة، ولكننى لم أجد حسا، البيت يقع فى آخر حارة سد، وعندما خرجت فوجئت بالهروب الكبير، الكل يجرى، يجرى وخلاص، لا شىء سوى الخروج من الحارة، الفرار من وحش فظيع يطاردهم أينما حلوا .

اندفعت بخجل، قدمت رجلا وأخرت أخرى، وفى النهاية هانت على كرامتى، سألت بالطبع عن سبب الرعب ولكن أثناء الجرى، كيف يمكنك التوقف بينما الناس يجرون، بالتأكيد هناك ما يخيف، وفى النهاية اصطدمت بالنسيب المرتقب، كان يتأرجح بين نجاتين، نجاته هو شخصيا ونجاة العيال الذين نسيهم فى البيت، ولكنه استطاع أن يتطوع بإجابة كسفتنى: "زلزال زلزال .. الأرض اللى تحتك بتتهز دلوقت، والبيوت اللى حواليك هتتهد علينا.. دلوقت .. سامعنى .. دلوقت ".

رؤيا

رأيـــت فيما يرى النائم كومة هائلة من الرمل، ورأيت نفسى، وقـــد تـــضخمت قلـــيلا، أحـــوم حولها ثم أكبسها فى كيس ضخم وأرفعهـــا بحـــركة واحدة على كتفى وأصعد عمارة عشرة طوابق وأقـــذفها وأمـــوت، أمـــوت فعلا وألفظ أنفاسى الأخيرة، ولكن فى الـــصبح صـــحيت، صـــحيت نشطا ومقبلا على الشغل على غير العـــادة، ونـــزلت للحمام وتشطفت وطلعت على القهوة، وقاولنى المعلم مطر على نقلة رمل فى دوران شبرا.

حققـــت خبـــرة لا بأس بها فى عتالة الرمل، طفت حول نقلة الـــرمل دورتين وفى الثالثة حددت: عشرة أمتار بالضبط، والمعلم كما العادة يماطل ليجعلها سبعة، كنت أتأمل نقلة الرمل باستغراب، نفس التى رأيتها، تشبه ضريح سيدى دانيال، نفس اللون الأصفر، ونفس القاعدة والاسترخاء ونفس الذروة المنبعجة قليلا.

شملتها بنظرة فاحصة، وينك يابودفية، أسبوع واحد فى صب الخرسان وطوحت القروانة على طول يدى، الرمل أنظف كثيرا، وأنـــا لست مثل الفواعلية العاديين، أنا مؤهلات عملى فى الفاعل مـــرحلة انتقالـــية حتـــى أتمكن من الوظيفة اللائقة. عتالة الرمل

مجهـــود فردى عادل، واحد + واحد = اتنين، صراع بين الواحد وقـــوته، كـــل شـــيكارة إثبات جديد لرجولتك، لقوتك، ولأنك حر ووحيد فى هذا العالم.

مـــع أذان العصر تقريبا أطحت بنقلة الرمل، كان جسدى فى ليونة جسد سباح، وفكرت أننى قادر على الإطاحة بجبل آخر، كما فكرت في اتنين كيلو فاكهة وعشاء ساخن مع عم أحمد.

الـــيوم عم أحمد أجازة، من البنك ومن نصبة الشاى، وطبعا حـــنان موجـــودة، ابنته الساحرة، كنت هموت عليها، كانت أشبه بـــشجرة متمـــرة، شجرة عنب بناتى أثقلتها العناقيد، ولكنها كانت عـــصية المنال، كم حاولت معها، كم عملت بهلوانا، وكم أهدرت أياما فى اللف على معهدها التعس، وكم بالغت أو قل أسطرت فى أهمـــية مستقبلى ككاتب مرموق، وكم أرهقت نفسى فى محايلات سخيفة لنشر قصصى لا لشيء إلا للفت نظرها، ولكن هيهات، لم أظفـــر مـــنها بكلمة، طبعا كنا نتكلم فى كل الموضوعات الدراسة والمعهـــد والمـــناخ صيفا وشتاء ولكننا لم نتكلم أبدا فى الموضوع الـــذى كـــنت أمـــوت على الكلام فيه، وكانت دائما تفر من عينى المسلطة عليها طوال الوقت، لم تكن تفزع أو تمتعض، ولكن تفر وتتركنـــى ملهـــوفا ومحبطا، كنت أحس أننى، كلى على بعضى، فـــى نظـــرها مجرد ابتسامة، شخص طريف وربما أهبل، وكنت أحـــاول طوال الوقت إفهامها أننى لست هكذا، وأننى شخص هام، مبدع، يليق بالإعجاب والحب .

شـــقة عم أحمد عبارة عن سرير متسع وأربع كنبات وحمام وطـــرقة ســـأحاول وصــــفها فيما بعد، وفى كل زيارة كنت أسند ظهـــرى على الكنبة القريبة من الباب وأحاول بأدب جم فتح حوار معها. أسألها عن أحوال الدراسة وتجيب بأنها تمام وينتهى الكلام.

كـــدت أتـــوجه لمـــساكن الزلـــزال حيث شقة عم أحمد لولا مداهمات الدكتور، الدكتور صديق عمرى، وكأى متطلع لانتصار عاطفى لم أخجل من مزاحمته على ابنة عمه، بل يمكنك أن تقول إن حكاياته عنها هى التى حببتنى فيها قبل أن أراها، ولكن كبساته كانت تحرجنى، تشعرنى بالخيانة والخزى ولكى أزيل أى ظنون لديـــه كـــنت أضـــطر للمبالغة فى مآثره وبطولاته أمامها، أدرت الشيكارة الأخيرة فوق كتفى وتركت نفسى للظروف.

لعب

كـــنا أحيانا ننفسح، أنفار اليومية، الفاعل عموما ليس لهم يوم إجازة مقدس كباقى المهن، هم عادة يخرجون للبحث عن عمل فإن وجـــدوا اعتبـــروا اليوم عمل وإن لم يجدوا اعتبروه إجازة، ونحن بالـــذات كنا نعمل فى ظروف استثنائية، كنا نغافل الحكومة، وأيام الجمـــع والعطلات الرسمية أوقات ملائمة للعمل فى البيوت الأيلة للسقوط، ولكننا كنا نضربها طبنجة ونكوى ملابسنا ونخرج للسينما أو جنيـــنة الفـــسطاط أو حديقـــة الحـــيوانات، وأحيانا كنا نرتدى التـــرنجات ونلعـــب الكرة فى الملاعب المفتوحة فى شارع جسر الـــسويس، كنا فرقة مشهورة فى هذه الملاعب، وكنا نواجه فرقا مـــن شباب حى مصر الجديدة القريب، وكانوا فى منتهى النعومة والـــشياكة، وكانت ملابسهم تبرق تحت شمس العصارى، ولكنهم كانوا يرهبوننا، ويسموننا بالمحاريت وكنا نسحقهم سحقا.

وأحـــيانا كنا ندخل السينما، طبعا للمناظر، للمشاهد الساخنة، أحيانا كنت انتطع وأقول أن التمثيل كأداء وفن يناسب المرأة أكثر مـــن الرجل، كانت تبدو لى ممثلة بالفطرة، مضطرة لإخفاء شيء يعرفه الجميع، مطالبة بالتمثيل أمام جمهور يعرف الحقيقة كاملة،

يـــبدو أن صـــوتى ارتفـــع، أنا عادة أفعل مثل هذا النهيق عندما تخذلنـــى قدراتـــى على تعميق الأمور، يبدو أنى سطحى فعلا، لا تـــشغلنى سوى ظواهر الأمور، حين أتعمق أرتبك وأحيانا أكتئب، لـــم التردد: أجسادِ وحتى أصوات الممثلات كانت الدافع الأساسى لدخولنا السينما.

فـــى حديقة الفسطاط المسألة واقعية، كنا نقابل بنات حقيقيات، خـــضرتها مـــبهجة، حتى اليوم مبهجة، تل من النجيل اللامع، فى العـــزبة كـــنا نعيش وسط الخضرة، نزرعها ونحصدها ونأكلها، ولكـــن الخـــضرة هنا مختلفة، إنها ترفيهية، يذهب لها الناس أيام العطـــلات. البـــنات كـــن حوالى خمسة وأعمارهن بين الإعدادى وأولـــى ثانوى، صدور مدورة وأجساد تتفتح، وكنا نستصغرهن عليـــنا، نحن رجال فى نهاية العشرينيات وهن فى النهاية أطفال، ولكنـــنا كـــنا نستمتع باللعب مهن، مرحات جدا، ومن حى السيدة زينب وحتى الآن أعتبر حى السيدة زينب موطنا للحسناوات، كنا أحـــيانا نـــستهبل ونـــوجه الكـــرة إلى صدورهم بتسديدات محملة برســـائل معيـــنة، وكن ينكمشن بنعومة مثيرة. أكثرهن مرحا كان اســـمها هالـــة، كـــنت أطيـــر فـــرحا باللعب معها، وكنت أحاول استدراجها فى الناحية الأخرى من الحديقة بأى شكل من الأشكال، وكانت تسير معى ولكنها دائما تتوقف، ربما التسرع والاندفاع أو شكلى نفسه كان يجعلها ترتبك وتخاف وتعود مسرعة، حتى الآن أعتبـــرها فرصـــة ضائعة، كانت كافة الظروف مهيأة كنا نتواعد ونلتقى ونلعب طوال النهار.

الدكـــتور ركز على نورهان، اسمها نفسه كان يبهجه، وكان يـــصدّر للجمـــيع أنها تخصه، وأن أى اقتراب يعنى خصام وحتى معركة، مثل هذه الأشياء كانت موجعة حقا، كنت أتألم حينما ينجح أحدهم فى إضحاك هالة، كنت، لوهلة، أعيد النظر فى علاقتى به، وانهمك فى التفكير فى طريقة مناسبة لردعه، ولكننى لم أقاطع أو أخاصـــم كمـــا يفعـــل الدكتور بكل وضوح ونزاهة، كنت أبلعها، أحـــاول أن أبدو وكأن الأمر عادى جدا، أنقبض وأبتسم ببلاهة ثم أواصل اللعب.

في سبيل الله

الإنسان قادر على كل شيئ، الإنسان وليس شيء آخر، إذا آمن رأى في كل خطوة يخطوها دليلا جديدا على حقيقة إيمانه، وإذا كفر (لا أحب هذه الكلمة) رأى في كل خطوة يخطوها دليلا جديدا على حقيقة كفره، تلح على هذه الفكرة كلما تذكرت قصة خروجي في سبيل الله، الحقيقة هي وقصص أخرى، منها الخاص كقصة آلام أمي التي تستعصي على كبار الأطباء في مصر وبمجرد أن تغمر رجليها في رمال سيدي دانيال تشفى وتعود ماشية كالحصان، ومنها العام العالمي كقصة الشيخ أسامة بن لادن الذي لا أشك مطلقا أنه يرى في كل يوم ولحظة معجزات وخوارق إلهية لم يحظ بها كل الأنبياء والمرسلين، ماذا تكون قصص "غار حراء" و"غار ثور" بجانب الكمائن والشراك المهولة والأشعة الفاحصة الفتاكة التي ينجو منها ابن لادن يوميا، لكن خلينا في قصة خروجي .

لا أعرف لم تلح على هكذا، الحقيقية هي وقصص أخرى، ولكنني استغنيت عنها جميعا، ولم تبق إلا هي، كلما أحسم الأمر على نشر هذا الكتاب بدونها أتراجع، كنت تخرجت من المعهد،

وكـــنت حائـــرا بين العيش فى العزبة وزراعة الفدان وبين السفر للخارج، وكنت .. لا فلأبدأ القصة من الأول .

عزبتنا حتى السبعينات كانت لا تعرف من مظاهر التدين إلا العـــيدين والمواسم التي أتضح أن معظمها مسيحى وأذان الجمعة ومغـــرب شـــهر رمـــضان، ونظرا لانهم كانوا يستخفون بمهمة المؤذن ويرونها غير لائقة بشيخ عرب معتبر، كانوا يوكلونها لنا، نحـــن الأطفـــال، والحقيقة أنه كان فرحا يوميا، وبمجرد أن يؤذن أحدنا نصرخ بفرح ونطلع من الجامع جريا على أهلينا لنزف لهم خبـــر أذان المغـــرب دون أن نصلى، ولا أعرف لماذا استعذبوا صـــوتى وصـــرت أأذن شهر رمضان حتى ظهر الشيخ محمود، وبالطـــبع لـــم يكن هناك ميكروفون، وكنت أأذن مباشرة من فوق سطح الجامع بأعلى صوت، ولكنى كنت فرحا ومستمتعا بالأذان، وســـرعان مـــا صار لى ما يمكن اعتباره جمهور من المستمعين، وكـــنت أتيه فخرا حينما يشيد أحد أعمامى بأذانى وسط محفل من الـــناس، وازددت ثقـــة بنفـــسى ورحـــت أتفنن فى تقليد مشاهير المقرئين والمؤذنين كالطبلاوى وعبدالصمد وغيرهما من الأعلام، وكنت أستعذب التجويد والغناء والإطالة، حتى جاء الأستاذ وأفهمنا أنهـــا بدعة وأن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار وأن الأذان الصحيح الشرعى هو الصياح أو قل الزفير الجاف الخشن " اللهو أكبرررررر اللهو أكبررررر " .

الـــشيخ محمـــود ابـــن عمى داير، ابن عبدالله أبو محمود لو تذكـــرونه، وفى نهاية السبعينات نجح فى الثانوية بتفوق بمقاييس

عـــزبتنا والـــتحق بكلـــية التـــربية قسم إنجليزى، وحينما ملحقت إنجليـــزى أنا وابنتى عمى سحر ومنيرة وواحد فلاح اسمه محمد ذهبـــنا لـــنأخذ درســـا عنده، وكان نزيها صريحا منذ البداية ومنذ الحصة الأولى صارحنا أن الذى فيه الأمل أنا وسحر، وأن منيرة والفـــلاح لا أمـــل فيهما، ولا داعى لان يتعبا أنفسهما ويتعباه فى الدرس، وانتظمت أنا وسحر على دروسه، وجاء الامتحان وامتحنا ولكن للأسف رسبت أنا وسحر ونجحت منيرة ومحمد.

لكـــنه نجح فى الجامع، وقاد ما يمكن اعتباره صحوة أو حتى ثورة دينية سرعان ما انتشرت فى العزب المجاورة، وبدأ يخطب الجمعـــة علـــى طـــريقة الـــشيخ كـــشك، ولكن بدلا من التطاول والـــسخرية مـــن مشاهير المطربين والسياسيين، كان يوجه سهام كلماتـــه علـــى أهله وذويه، الذى يشاع فى النمائم السرية أنه بتاع نـــسوان أو بـــيغش فـــى الميزان أو يأكل مال اليتيم يفضحه على المنبر "ويتوعده عيانا بيانا بويلات الجحيم والنار المستعرة " فلان الفلانى الذى وقف على الترعة ليتلصص على النساء سيبعث يوم القـــيامه بعيون من نار" وبالطبع لا يخرج فلانى الفلانى هذا عن واحـــد مـــن أقاربه، وبالطبع أيضا كانت تقع صدامات ومعارك، تنتهـــى الخطـــبة والـــصلاة ويبدأ الضرب بالشوم، ولكن الأستاذ انتـــصر فـــى النهاية، وصار له أتباع أطلقوا لحاهم وبدأو يحثون الـــناس على الالتزام بالصلاة وترك المعاصى، فى البداية كانوا عنيفـــين، وهجمـــوا على كام فرُح ومنعوا الرقص والغناء وفرقوا بين الرجال والنساء وتجسد لهم أس المعاصى فى العزبة فى دكان

بسيط عبارة عن حصيرة مفروشة وعدة شاى وقروصتين سجاير وعلبة بسكويت أو ملبن وشيشة واحدة، وكان فاتحه أحد أعمامى لسهرات المسامرة ولعب الكتشينة، وفى الليل هجم عليه الإخوة، وتقريبا شتموا السهرانين فيه وتفزعوا عليه، لكن الموضوع قتل فى المهد، واجتمع كبارات العائلة فى بيت عمى العمدة واستدعوا الإخوة وعنفوهم وحذروهم من الغلط، وأنه ليس هناك إلا الجلد ونتف اللحى، وانتهى الأمر بأن اللى عايز يصلى عنده الجامع وملهش دعوة بحد.

وفى هذه الظروف ظهرت فى عزبتنا جماعة "التبليغ والدعوة"، وسرعان ما انتشرت وتوغلت، أنا شخصيا صرت عضوا فيها، وهى جماعة سلمية أسسها أحد رجال الدين الهنود، وتغذى فى أعضائها التسامح والتعامل مع الدنيا باعتبارها سوق انتصب ثم أنفض، ولا تطالب الناس سوى بإقامة الصلاة والاقتداء بسيدنا النبى، كما لا تشترط والأدق لا تحبذ فى أعضائها الخطابة أو التبحر فى الفقه، بمجرد أن تسمع بيان العشاء فى المسجد تصبح مناصرا للجماعة، وبمجرد أن تسحب بطانيتك وتخرج فى سبيل الله تصبح عضوا فاعلا فيها، وتحافظ على تنظيم واضح بسيط، وتعمل بنظرية إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم، أمير لكل قرية وأمير لكل مجموعة قرى وأمير لكل مركز وأمير لكل محافظة، والعضو الملتزم فيها يسحب بطانيته ويخرج فى سبيل الله ثلاثة أيام فى الشهر وأسبوع فى السنة شهور وأربعين يوما فى العام وأربعة شهور فى العمر كله، وتبتعد عن أى صدام مع السلطات

المختصة، وتمنع أعضائها قطعيا من الكلام فى أمراض المجتمع وعيوبه، وهدفها الأساسى والوحيد هو جر الناس للصلاة فى المساجد وحثهم على ترك الدنيا الزائلة والخروج فى سبيل الله، وبمجرد أن تحمل بطانيتك وتخرج معهم سيجعلونك تدلى ببيان العشاء، بعد الصلاة مباشرة سيقولون لك قف يا شيخ وسيفتح الله عليك، تكون ساعتها لا تعرف الألف من كوز الدرة ولكنه يفتح عليك بالفعل، وأنا شخصيا فتح على، ووجدت نفسى أخطب فى الناس وأحثهم على التمسك بحبل الله والفرار من الدنيا الزائلة بك حماس وثقة وثبات، وأعضاؤها النشطون المتلزمون يغلب عليهم الهدوء والسمنة من طول النوم فى الجوامع وراحة البال على أساس أنه لن يصيبنا إلا ما كُتب لنا، وبشر بها فى عزبتنا ابن عم كنت ومازلت أكن له كل الاحترام والتقدير، إنه مثال للذين طلقوا الحياة الدنيا وقالوا إنا لله، لا شىء فى حياته إلا الصلاة والخروج فى سبيل الله لإعلاء كلمته، وخرج فى السودان وإندونيسيا وباكستان وأفغانستان فى التسعينات، وهو الذى أقنعنى بالخروج وقال إن ثلاثة أيام ليست شئا من عمر البنى آدم، فخجلت من الرفض وحاولت التحجج بأننى أدخن ولكنه قال دخن على راحتك الخروج لا يمنع التدخين، وخرجنا ثلاثة أيام فى قرية مجاورة، كنا مجموعة من شباب العزبة وانقسمنا فريقين، فريق خارجى يلف على البيوت ويدعو الناس للصلاة فى المسجد، وفريق داخلى يجلس فى المسجد لتلاوة الأذكار والابتهال لله لتوفيق الإخوة الدعاة فى الخارج، وفى كل الأحوال كانت روائح الطبيخ تعج فى

المسجد، وكان الأكل شهيا ولذيذا، وكنا ننكب عليه وكأننا ساقطون مـــن جبل، والحقيقة أنهم كانوا أريح ثلاثة أيام فى حياتى، شىء مــريح حقا أن تنام ملء جفونك على اعتبار أنه لن يصيبنا إلا ما كـــتب لـــنا، كـــنت فى منتهى السكينة والطمأنينة، واسترحت من الشعور بالمسئولية والذنب الذى أرهقنى وما زال يرهقنى وسيظل يرهقنى إلى أبد الآبدين .

وخز الضمير

صحيت فى السادسة كما العادة، وكانت الدنيا برد، تلج والله، وكنا فى شهر رمضان، وتكاسلت، لسه هقوم وانزل الحمام واتزنق فى الأوتوبيس، وبعدين اتلطع ع القهوة ويا اشتغلت يا مشتغلتش، وشديت البطانية ونمت وكدت أستغرق فى النوم لكن الضمير اشتغل، طب أنت جى ليه، مش عشان تشتغل، طب خلينا م الشغل. الفلوس. أنت معاك فلوس ؟ فانتفضت مذعورا ونزلت للحمام جريا، وتشطفت ولبست وطرت على شبرا .

لم يكن هناك غيرى من البلد، وكانت القهوة رائقة، وقلت لنفسى هنشتغل إن شاء الله، لا يوجد إلا أنا وأربعة أنفار من بنى سويف، وفى الثامنة جاء المعلم مطر، طبعا مضبوط إلا فى دفع الديون، وضرب شيشته المعتادة فى عز رمضان وأخذ نفرين فى يومية تكسير فى بلوكات الشيخ رمضان ومشى، وبعده قام مبيض محارة وأخذ نفرا فى يومية عجان، وبعده جاء واحد ملكى وأخذ النفر الأخير فى مقاولة تنزيل عفش وبقيت وحدى أنتظر، وسألت سالم "الساعة كاااام" فقال " تسعة ونص" بطريقة تفهم منها أنه لم يعد هناك طائل من الانتظار، "سوق انتصب ثم انفض ربح فيه

الــرابحون وخسر فيه الخاسرون"، وبدأت أغير خطة اليوم، بدلا من قضائه فى الشغل، رحت أفكر فى طريقة لإضاعته، كنت فى العادة أعود للأوضة فى عين شمس، وأقضيه فى القراءة وضرب العشرات والنوم والتلصص على الجيران بعد الفطار طبعا، ولكنى فكرت فى رحلة للدكتور وترددت قليلا فى إن كان ذلك مناسبا فى شهر رمضان المبارك ووجدت أنه مناسب خصوصا أن الاحتمال الأكبــر ألا تظهر الممثلة فى النهار، ثم إننى سأنام حتى المغرب وأفطر مع الدكتور وأعود على عين شمس.

كلما يقابلنى يعزمنى على رؤية الممثلة، ويقول إنها تستتضفه عــن كــل الشغالين فـ العمارة، وتوليه هو بالذات مهمة تسليمها جــوابات المعجبين، وعادة لا تفتح إلا الجوابات الملونة المزركشة وكــل جــواب تفتحه وتنظر إليه بقرف ثم تقذفه فى وجه الدكتور حتى تنتهى الجوابات فتقول شيل الزبالة دى فيشيلها وينزل. وقال أيــضا إنها ترافق واحدة سعودية غامضة، وأحيانا كنت أذهب إليه محمــلا بكــل مــشاهدها الساخنة فى الأفلام، وأجلس على الدكة بجانــبه وهــو يــزاول عمله وأتحين ظهورها، ولكن حينما تمر صــاعدة أو نازلة أحاول أن أفهمها أنها لا تعنينى في شيء، أرفع رأســى عاليا وأتركها تمر وكأنها هواء، مرة اقتربت منى وسألت بــذلك الهدوء الذى يسبق العاصفة " انت مين .. قريب النطع اللى هــناك ؟ " وعلى الفور قررت التبرؤ من النطع اللى هناك ولكنها هجمت على " قوم اقف وانت بتكلمنى " فارتبكت وغطانى العرق فقالــت "رد.. انــت اتخرســت"، والحقــيقة أنى اتخرست فعلا،

وأحســـست بالخطأ، وأنه مكنش فيه داعى للعنطزة الكدابة، وأنها يمكـــن تودينى فى ستين داهية، ولكن الدكتور أنقذنى، جاء جريا وأشـــار إلـــى بدروم العمارة وقال أننى زبون وأننى همشى على طول لما تطلع عربيتى م الجراج.

ركـــبت مـــن محطـــة الـــشيخ رمضان على رمسيس، ومن رمـــسيس على مصر الجديدة ونزلت أمام عمارة الدكتور، عشرة طوابـــق فوق بدروم كبير والدكتور أمامها، يرتدى بنطلون جينز وقمـــيص محـــبوك علـــى ســـرته ويمسح فى العربيات بكل همة ونشاط، وبمجرد أن رآنى صرخ وانهلنا فى القبلات والأحضان.

قعـــدت علـــى الدكة قليلا، ثم استأذنته فى النوم فى أوضته، ورجـــوته أن يتركنى حتى الفطار، ودخلت ونمت، واستغرقت فى الـــنوم، وحلمـــت بواحدة جميلة فى حضنى، وتحسستها من فوق لـــتحت وكـــدت أفعل معها ما أفعله فى الأحلام ولكن أتضح انها حقيقة، جسد حقيقى ناعم وطرى كالعجينة فانتفضت مذعورا لأجد الدكـــتور فـــى وجهى "أى ده" فقال "عادى بس مش دلوقت، هما صـــايمين برضـــو، بعد الفطار إن شاء الله " فانتبهت على واحدة اخرى تستلقى بمنتهى الدلع والدلال على السرير الآخر.

كـــنت ســـمعت طراطيش كلام عن نشاط العمارة، ولكنى لم أتـــصور أن تكـــون المسألة بهذه السهولة، والحقيقة أنى ارتعبت، وفكـــرت فى كل العواقب الإلهية والبشرية، حتى هذه اللحظة كنت أعـــيش فـــى الخـــيال وكان لى تجربتان أو قل تجارب لا داعى للتقلـــيب فـــيها، وانتظرنا حتى الفطار، وكانت فرصة لكى أجمع

قــواى وأستوعب الأمر، ووقع ما أرهقنى طويلا وقض مضجعى ومـــازال، وقــع بسهولة ويسر وحنان حتى اليوم أتلمظ حلاوته، دخلـــنا على سرير خشبى فى البدروم، وطبعا سرعان ما انهرت، ولكـــنها كانـــت متفهمة، وقالت لى اهدا وبالراحة، وأغدقت على حنانا عذبا ممتعا يكفى لإحياء جثة هامدة.

الوقوف على أرض صلبة

الدكتور على علاقة مع واحدة من العزبة، تخفت فترة وتشتعل فترة،، ولكنها تشغله طوال الوقت، وحينما يضرب السيجارتين وينجلي لا يذكر سواها، وهى علاقة غريبة حقا، تحتار فيما يريده الدكتور منها، حنان زوجة ابن خاله، يحاول أن ينام معها وتحاول أن تنام معه، لا شيء غير ذلك، هو نام معها في الخيال، ويفكر، منذ سنوات، في تجربة حقيقية، وهى أيضا ترغب في تجربته، هو بالذات. كل من لديهم استعداد من معارفها، ناموا معها، شقيق زوجها الأوسط والأصغر وزميلها في العمل وشابين من عائلتنا وأحد أعمامي واثنين أو ثلاثة سائقين على الخط، ولم يبق إلا الدكتور، والحقيقة أنها لم تقصر معه، هيأت الجو ودبرت مواعيد لم تخطر على بال زوجها، وزوجها نفسه مصهين، فرى يعنى، يستأذن ويتركهما معا بالساعات، ويشد البطانية وينام في عزّ السهرة، ولكن الدكتور كان يتخاذل في لحظة معينة، بمجرد أن تتهيأ وتهيج ينصرف، وتشيعه بنظرة احتقار لم تمثل له أي شيء، كان يصف حدتها بمرح، وكنت أحس أنه يعاقبها، وكنت أحس أيضا أنه يخاف منها، جرب غيرها، بنات

ونسوان، في العزبة وفى العمارة وفى بيت خاله نفسه، وخبر نومه مع جارته والباب مفتوح ذاع فى عزبتنا والعزب المجاورة، ولكنها شىء مختلف، حنان شىء مختلف، حنان معركة، شابة وجميلة وقوية وفاجرة، كان يطولها فى الخيال، يغمض عينيه ويجعلها تركع، ولكن شتان بين الواقع والخيال.

من عائلة حلبية تسكن قرية مجاورة، ودرست معنا فى الإعدادى، وكانت مشهورة بكبر صدرها، لم يكن ضخما، فقط لا يناسب طفلة فى الإعدادى، ولكنها كانت مسكينة، ملابسها متسخة وتجلس فى "التختة " الأخيرة وتبدو كما لو أنها خجلة من مسألة صدرها.

الدكتور درس معها سنتين، أولى وتانية، وكان مثلها فى التختة الأخيرة، وسمع عن مسيرتها فى مدرسة التمريض، ولكنه لم يركّز معها إلا بعد أن تزوجت ابن خاله، والحقيقة أنها صارت شيئا آخر، امرأة، رزينة ومثيرة وتثير فى النفس عواطف عنيفة، والدكتور يتابعها طوال الوقت ويتسقط أخبارها فى العزبة وشبرا وأى مكان، ويعرف أولاً بأول كل الرجال الذين ناموا معها، وأكثر ما يندم عليه حتى اليوم هو يوم " الطرنش". كان يحفر طرنشا فى بيت ابن خاله، البيوت الحديثة فى عزبتنا مزودة بحمامات عصرية إلى حد ما وطرنشات للصرف الصحى، والدكتور منوط بمثل هذه الأعمال، تشغيل بنى أو مبيض أو حفر طرنش.

أرضـــنا حجرية، انتظرته حتى تعمق فى الحفر، ناوشته من بعـــيد لبعـــيد، ولكـــنها لم تواجهه إلا بعد أن اختفى فى الطرنش، جلـــست على حافة الطرنش، ودلدلت رجليها داخله . كانت فوقه مباشـــرة، وكانـــت ترتدى جلابية على اللحم، والدكتور كاد ينهار تحـــتها، وقفـــز خـــارج الطـــرنش، وقال " أنا كده هتجنن" "إنت اتجنـــنت؟" "مـــرة وحدة، قلتلك مرة وحدة" " لا، النهارده لا، بكرة هـــستناك وان اتأخـــرت انت حر" . وخرج، الدكتور خرج، كان الـــيوم فى أوله، والمفروض أن يواصل العمل فى الطرنش، ولكنه فـــضل الاستعداد مبكرا، واستعان بتجربة العمل بالصيدلية، وحدد شـــريطا يـــؤجل وربما يعطل القذف، ودبر سيجارتين معتبرتين، وثانـــى يـــوم سحب الأزميل وطار على طرنش ابن خاله، وقابلته ودخـــل واحـــتار فى أمره ثم وجد نفسه ينزل فى الطرنش ويحفر بكل همة ونشاط.

عم أحمد

عم أحمد شقتين فى مساكن الزلزال بعين شمس الغربية، شقة فـــى الـــدور الأرضـــى وشقة فى الدور الأخير، وحديقة صغيرة عامـــرة بمخـــتلف أنواع الخضراوات. أصلا من البلد، يعتبر عم الدكـــتور، وجاء إلى مصر فى السبعينات واشتغل فى الفاعل حتى وفـــق فـــى شغلانة ساعى فى بنك مصر، المقر الرئيسى، وكان يـــزود دخلــــه بنـــصبة شاى فى شارع منصور، وكان يسكن فى بولاق، وبعد الزلزال صبر على قرف طوابير الحكومة حتى سكن بمـــساكن عـــين شـــمس التى لقبت بحكم نوعية السكان وظروفهم بمـــساكن الزلـــزال، فى الأول كانت شقة واحدة، رقم واحد بلوك نمـــرة خمسة، وعم أحمد كان حائرا فى أمره، الولد هيتجوز معايا فـــى الـــشقة، طـــب والبنت هتروح فين، وجمعية ف جمعية على كباتـــين زيادة فـ نصبة الشاى وحل المشكلة، اشترى شقة بالدور الأخيـــر، وصار واضحا حتى للجيران أن الولد هيتزوج فى شقة الدور الأرضى والبنت فى شقة الدور الأخير، وعم أحمد أحس أنه حقـــق مـــشروعه فـــى الحياة، وارتاح وتخن وتورد وبدا يتحرك باعتـــباره مالك البيت مرة صاعد للشقة الفوقانية عند البنت ومرة

نـــازل للشقة التحتانية عند الولد، وعلى حس الشقتين مد يده على أرض الحكومة وهدم سور بلكونة شقة الدور الأرضى وضم إليها قطعـــة أرض وانكفأ عليها حتى حولها إلى حديقة وارفة، وكانت حـــياته تـــسير بهدوء وانتظام، ولم يكن ينغص عليه إلا زوجته، كانـــت قـــصيرة ولئيمة ومن بنى سويف، وكانت نكدية تموت فى الـــنقار والكهـــن والخصام، وكانت تتمارض عليه وتحمله فوق ما يحتمل.

وكـــنت أحـــب قعدتـــه وكلامه وأزوره باستمرار فى البيت والنـــضبة، فى البداية كنت مدفوعا لابنته ولكنى اكتشفت أنى أحبه هو، كان كريما محبا للناس ويعاملنى كإبن ويحكى لى أدق أسراره ويستشيرنـى فى كل شيء، وكنت أتابع أحواله بكل إخلاص وتفانى كـــأب أو أخ كبيـــر، وكـــنت أفرح حينما يطلب مساعدتى فى أى شـــىء، ونـــادرا ما كان يطلب، يعطى فقط، أكل وشرب وعيون مـــتهللة فـــرحة باللقاء، وكانت حياته تتسارع أمام عينى كمسلسل مزدحم بالأحداث، صحيح أنها تبدو منتظمة على الشعرة، كل يوم يـــصحو فـــى السادسة صباحا ويرتدى البدلة الزرقاء ويشتغل فى البنك حتى الثانية مساء ثم ينزل على نصبة الشاى ويقضى سهرته ويعـــود فى الثانية صباحا متأبطا جريدة الأخبار، ولكنها كانت لا تـــدوم غلى حال، ومن محاسن الصدف أننى أعتبر صاحب بشارة موت زوجته، كانت تضيق علينا وتتأفف من زيارتنا وتكرّهه فينا، وكانت تتمارض كثيرا، وكنت أنم عليها مع الدكتور ومع عم أحمد نفـــسه وأقـــول إنها مهددة مصير الحديث "لا تمارضوا فتمرضو

فتموتوا"، وبالفعل أثناء الشغل فى شبرا، تكاملت فيها الآية وماتت. وبعـــدها بشهور قليلة اقتنع الولدين بفكرة أن الحى أبقى من الميت وتـــزوجا، البـــنت تزوجت ابن عمها فى شقة الدور الأخير والولد ابـــنة الجيران فى الأرضى، وعاش عم أحمد فترة بينهما، يومين مـــع البـــنت ويومين مع الولد والجمعة فى الجنينة يزرع ويخلع، ولكـــن كما عادة البشر وقعت المشاكل والبغضاء والغيرة والحسد والـــشر المـــستطير وعلا الحس واشتهى عم أحمد اللقمة والهدمة النظـــيفة، واحـــتار فى أمره، كان على وشك الإحالة إلى التقاعد، وكـــنت أظـــن أنه سيستسلم، أو فى أحسن الأحوال سيعيش بفرده بعـــيدا عـــن المشاكل، ولكنه فاجأنى بعروسة، شابة عفية من بنى ســـويف،، واعدنـــى أنا والدكتور على يوم، وجبنا نفرين م السوق ونـــزلنا علـــى الجنينة ووضبنا فيها أوضة بمنافعها واستأذننا عم أحمـــد للـــسفر لبنى سويف، وما هى إلا يومين وعاد بشابة عفية وعملنا له فرحا معتبرا فى الأوضة.

زيارة خاطفة

الدكتور زار دانيال فى السجن. دانيال قريب وجار وصاحب فضل، هو الذى سكّننا فى أوضة عين شمس والواجب أن يزوره ويطمئن عليه، وحسبا الفارق بين السنة العادية وسنة السجن، وكاد يسأله عن إمكانية الاستفادة من حسن السير والسلوك بالنسبة لقضايا الاختلاس والرشوة، واتفقا على أنها أيام وتفوت، وأخذ منه " قرشين" لزوجته، زميلتنا وجارتنا وقبلة خيالاتنا فى العزبة وعين شمس وحتى فى الحمام فيما بعد، وطواهم فى جيبه، وتمشى ناحية شرق العزبة، وخبط على الباب، بيوت عزبتنا لا تغلق أبوابها لا فى النهار ولا فى الليل، ولكن هذا الباب بالذات كان مغلقا، وفتحت، وقال إنه نزل من السجن عليها، وأن الراجل يسلم عليها، وأنه تمام، ودخل.

البيت واسع كعادة بيوت عزبتنا (تقع وسط الصحراء)، وفكّرا فى تكملة الكلام فى أوضة جوانية، وتابعا سربا صغيرا من البط يسير بإصرار وجلبة للداخل، وتذكرا معا حساسية الوضع والقيل والقال والعرب وما يمكن أن يفعلوه، واحتارا، وفتحت باب البيت وسندته بحجر وقالت "كدا أحسن".

كانـــت فـــى حوالـــى السادسة أو السابعة عشرة من عمرها، وكانـــت كمـــا هى الآن، قصيرة وبيضاء وممتلئة، وجلست أمامه علـــى الحـــصيرة، وتزحزحت ناحيته،.وتركت الثوب ينحسر عن ســـمانتيها، لا أدرى إن كانـــت صدفة أو عن قصد أو أن الدكتور نفـــسه عنّ له أن يراها هكذا، ولكنه وقع فى مقتل، مصدر طالما أشـــعل خيالى وخيال جيلى بأكمله، كل واحدة من الزميلات كانت تـــشتهر بشىء، وهى كانت تشتهر بسمانتيها، ومنظر دعكها لهما بالـــساعات علـــى مـــوردة الترعة يعتبر من المناظر البراقة فى الذاكرة، وأكاد أقول إنه المنظر الأول أو الشرارة الأولى فى حياة شباب عزبتنا، أنا عن نفسى كان المنظر الأول فى حياتى، ولولا الملامـــة لقلت لك إنه يلازمنى حتى اليوم، حتى هذه اللحظة يمكن أن أتخيلنى وأنا أستدرجها من على الترعة... ولكن هذا موضوع آخر.

المهـــم.. الدكـــتور جلس أمامها، وتواردت عليه كل المشاهد التـــى تخـــيلها فيها، وسلمها القرشين، وقال فى نفسه "أهى قدامك أهـــه"، وتطلعـــا للـــباب، فـــتْحه وسنده بحجر كما طمأن الجيران طمأنهما أيضا، مش معقول واحد ينام مع واحدة والباب مفتوح.

الفاعل

كنت أسمع أنهم يسافرون إلى مصر للشغل فى الفاعل، وكنت أسأل ما هو الفاعل هذا؟، طبعا لم أتوقع أن يشتغلوا طيارين، وكنت أعرف أنهم أنفار يشيلون التراب، ولى خال كان يقول لابنه هجّ على مصر عفّر هناك بدل قعدتك هنا. كنت فقط أتعجب من التسمية الفاعل، لم يسمونهم الفاعل، الشغل فى الفاعل، ولم يدل على أشقى الأعمال وأكثرها هلاكا، ولكن حينما سافرت واشتغلت عرفت أنها مناسبة، دقيقه تماما، إنه الفعل الأصلى، الخالد للأبد، رفع شىء من مكان إلى آخر.

كنت حاصل على الشهادة الإعدادية، وكنت جايب مجموع وهدخل الثانوية العامة، وكنت أحتاج عجلة، كنت أحلم بها كلعبة ووسيلة مواصلات للثانوية فى نفس الوقت، وسافرت فى ركب، الدكتور وتلات أربع أنفار م البلد، وكنت جاهزا للشغل، من البيت كنت جاهزا للشغل، كان يمكن أن أسافر ببنطلون وقميص، الدكتور نفسه كان لابس بنطلون وقميص، ولكنى سافرت بجلابية عربى مخططة، ونزلنا فى أحمد حلمى وأخذنا أتوبيس إلى شبرا، وكان مزدحما ووقفت خلف واحد، ونظرا لأنى مستجد، أو أن

الطـــوبة لا تقع إلا فى المعطوبة وقعت عليه أكثر من مرة، ويبدو أنـــه فهمنى غلط.. الحقيقة اتضح أنه صح، المهم أنه فجأة خبطنى بمؤخـــرته خبطة خبير جعلتنى أنتصب على الفور، واقتربت منه والتـــصقت فيه، وانهمكت، ولكنه فى عز انهماكى التفت إلى وقال "بـــراحتك ما يهمكش" فانكمشت، مت فى جلدى من الكسفة ونزلت على الفور ولحسن الحظ كانت المحطة المطلوبة.

وقابلـــنا المعلـــم مطر، وفوجئت بأنه رجل كبير، فى حوالى الـــستين مـــن عمره ويرتدى بدلة كاملة، وقاولنا على تنزيل تراب مـــن ســـطوح بـــيت آيل للسقوط فى دوران شبرا، كان جبلا من التـــراب، قـــضينا فـــيه مدة، أسبوعين كاملين، ولكنها أحسن مدة أشـــتغلها فـــى شـــبرا، قبضت خمسين جنيها، ونزلت على الفيوم واشتريت العجلة ودخلت العزبة راكبا عليها .

طابور طويل يليق بقائد عسكري

لا أعرف لماذا شاركت فى المظاهرة، ولا أعرف لماذا لم أهرب حينما توفرت فرصة الهرب، كان يمكن أن أهرب، واقتربت من السور وهممت بالهرب، والطلبة كانوا يفرون من حولى فرادى وجماعات، والعسكرى نفسه قال لى اهرب "نط واجرى قبل ما يمسكوك"، وأنا بطبعى شخص مستكين خواف بالفطرة من الشرطة والأمن وكان يجب أفر، أطير طيرانا، ولكنى اتكسفت، خجلت من القفز على السور والفرار هكذا وعدت.. وليتنى ما عدت .

كنا فى نهاية الترم الأول، وكنت تائها، لم أنفذ رغبتى فى إعادة الثانوية لتحسين المجموع، ولم أنتظم فى الدراسة بالمعهد، للأسف أعانى من هذه الخصلة، دائما لا أرضى بأحوالى، ظروفى وحياتى نفسها، ولكنى لا أفعل شيئا بالمرة لتغييرها، أحيانا أسافر مصر، أشتغل أسبوع أو اثنين وأعود، ولا أذهب للمعهد إلا للفرجة على البنات والتسامر مع الأصدقاء، وصباح المظاهرة وصلت المعهد حوالى العاشرة، ولاحظت أنه محاصر بقوات الأمن، ولكنى لم أهتم، فى الآونة الأخيرة دأبت قوات الأمن

على محاصرة كل شيء، ورأيت في الحوش تجمعا للإخوة ولكنى لم أهتم أيضا، ففى الآونة الأخيرة دأب الإخوة على التجمع والسير بجدية متناهية فى طوابير ودوائر، وصعدت للدور الثالث، وسمعت همهمات بأن الإخوة سيقومون بمظاهرة للتنديد بموضوع الصلبان التى يرشها مجهولون على ملابس الأخوات أو للإفراج عن اثنين من قادتهم المعتقلين فى سجن طرة لا أذكر بالضبط، ونزلت أتفرج، كانوا جمهورا غفيرا تحت شباك العميد، وكانوا يهتفون فى صوت واحد كالرعد، ولا أعرف لماذ شعرت بنشوة غريبة ورحت أهتف معهم بأعلى صوت ".. .. يا جبان يا عميل الأمريكان" نعم نشوة وشيء كالفرح والكبرياء ونظرت بترفع وخيلاء واحتقار حقيقى لقوات الشرطة التى حاصرت المعهد.

وأثناء الهتاف ظهر العميد من الشباك وطالب الجميع بالانفضاض والعودة للدراسة وإلا سيدعو الشرطة لاقتحام المعهد، وجاء الرد صاعقا من كرسى قذفته أخت كانت تقف بجانبى مباشرة فى الشباك، وعينك ما تشوف إلا النور، اندلعت الثورة، ثورة حقيقية على الأثاث، الطلبة، الإخوة وغير الإخوة، دمروا المعهد، انهالوا على المدرجات والسكاشن الحقيرة التى كنا ندرس بها، تدمير همجى مغلول، وجحافل الشرطة أحكمت حصار المعهد من كل اتجاه وبدأت ترسل إنذارات بالاقتحام، والإخوة ردوا بالطوب، قذائف الطوب الأحمر، أنا بالطبع لم أشاركهم، وكنت طوال الوقت مطووشا؛ مرة أجرى ومرة أقف ومرة أقعد دون سبب، ولكن كم شعرت بكبرياء وفخر حقيقى وهم يقصفون

الشرطة بقوالب الطوب، كانت هناك "رصة " طوب أحمر فى الحوش حولوها على الشرطة، والشرطة انهالت بالقنابل، قنابل صغيرة كان الإخوة يتلقفونها ويعيدونها على الشرطة ولكنها تركت دخانا لعينا، نار اشتعلت فى عينى، وطلعت أتخبط لدورة المياه فى الدور الثانى، عرفت ولكن بعد فوات الأوان أن العلاج فى البصل وليس الماء الذى أشعل نارا فوق نار، وخرجت أصرخ فى الممر، ومن سوء حظى لم أجد إلا "خليل"، بواب العميد البائس الذى يكرهنى لله فى لله وطالما سخرت منه وجعلته أضحوكة للمعهد كله، كنت لا أكاد أرى من سيل الدموع وكثافة الدخان الحارق، ولكنى عرفته تماما من صلعته وقصره، ولم يكن هناك بد من الوقوع فى عرضه، احتضنته احتضانا، ورغم قصره استطعت أن أندس تحت باطه، وقلت بكل ما أوتيت من ذل ومسكنة "أنقذنى يا عم خليل"، فقال "تعالى يا حبيبى ما اتخافش" ولكن بنبرة لعينة، نبرة الخسيس حينما يتمكن، وعلى باب السلم أسفر عن خسته بكل ضراوة.. ودفعنى.

كان فى الأسفل، مدخل المعهد، جيشا مدرعا من قوات الأمن المركزى، ورتبا تسد عين الشمس، وعساكر شداد يلفون فى دائرة ويخبطون أرجلهم بالأرض ويقولون بصوت جماعى "هع" وعصبة من الضباط والعساكر تسفف التراب لطالب أعرفه، وفى الخارج كانت عربية الأمن المركزى تستقبل الساقطين والمقبوض عليهم، ومن هذه المسافة القصيرة رأيتها طوق نجاة عصى المنال، وكم تمنيت أن أغمض عينى وأجد نفسى داخلها، وكم تمنيت أيضا

أن تنشق الأرض وتبلعني، وفجأة رأيت الضابط القريب مني ينقلب على رأسه، أي والله على رأسه، ويأتيني برجليه على شكل كماشة، صرخت وكدت أسقط على ظهري وقلت " أنا مستسلم.. أنا مسلّم نفسي"، قلتها يائسا ومسلما أمري لله، ولكن المعجزة تحققت، سمعت صوتا يأمرهم "سيبوه"، واصطفوا ضباطا وعساكر صفين متوازيين ومتخشبين وتركوني أسير بينهم في أمن وأمان كأي قائد عسكري حتى ركبت العربية.

رسالة

أخى العزيز / ....

تحياتـــى لك وأشواقى. أرجو أن تكون فى خير وأحسن حال أنت وخالتى وأحمد وزينب وسومية وأولادهم.

بلـــغ سلامى إلى خالتى مريم وأولادها وعائلة خالى مختار. وبلغهم أننى أرسلت له خطاب ولم يرد لا أدرى لماذا هل العنوان خطأ أم أنه مشغول . وبلغ سلامى إلى أيمن وخالد وشهاب.

وبعد ..

أعـــرفك أنـــنا إخوة وليس بيننا شيكات ولا وصولات أمانة. وأعرفك أيضا أنه لو معى فلوس لن أتأخر بها عنك أبدا.

وأعرفك المهم:

بالنـــسبة للفيـــزا الحـــرة فهـــى تصرف حوالى ٤٠٠٠ جنيه مـــصرى سيأخذها الرجل البحرينى مقابل الفيزا الحرة، وسيأخذها قبل أن يفعل أى شئ. وأيضا مجازفة لأن العمل قد تحصل عليه بعد شهر أو شهرين أو بعد ثلاثة فهى عملية تعتمد على توفيق الله ونصيبك . وأنت تعرف أيضا أن الفلوس التى معى الآن لا تتعدى الألف ونصف ومع ذلك مطلوب منى مبلغ ٣٥٠٠ جنيه شبكة فى

خـــلال ٥ شهور من سفرى، أى أننى مزنوق زنقة جامدة لا تدع عندى مليم فائض وربنا معايا.

أنا كلمت صاحب مكتب السفريات عنك وقال سأبحث لك فإن وجدت لك عقد سأخبرك بطلباته ولو حصل نصيب ستدفع الفلوس فـــى البيت وسأعطى أنا للبحرينى الذى معى وهذا كل ما أستطيع أن أفعله فإن بقى له شىء سأجعلك تحضره معك من مصر.

وأرجـــو أن تعرف أننى لا ينوبنى من هذا شىء أبد، بل أننى أتـــودد لهـــذا الرجل وأصرف عليه حتى أستطيع أن أحصل على عمـــل لـــواحد منكم، وهذا للآن كلفنى ما يعادل حوالى ٢٥٠جنيه مصرى، ولو كان لى منهم جنيه واحد فلن أطالبك به حتى يكون معك .

- الفيزا مدتها عامان. وهى فيزا للعمل والراتب ما بين ٨٠، ١٠٠ دينار . المصروف الشهرى للفرد حوالى ٥٢ دينار.

فيلم

دائما أفكر فى كتابة فيلم عن الفترة التى قضاها الدكتور فى عمـــارة الممثلة، واحنا شغالين فى شبرا كان خيالى يشطح لدرجة أن الفـــيلم ضــــرب وانقلـــبت الدنيا، وحتى اليوم أرى فيه إمكانية لتحـــسين أوضـــاعى، وكلما ضاق الحال أعيد قراءة كتاب "كيف تتعلم كتابة السيناريو" وأبدأ الاستعداد لفيلم العمر.

الدكـــتور عـــاد مـــن مشوار العتالة محطما، جلد على عضم وخطـــوط الأســـمنت أخاديد على وجهه، لكنه لم ينزل شبرا، وبدا وكأنـــه عقـــد العزم على تبطيل الشغل فى الفاعل، واشتغل موزع أفـــلام فيديو، ولبس طقم جينز ولف شهورا على محلات الفيديو، وأخذنـــى معـــه فتـــرة، قال شغلانة نضيفة وقرشها مضمون بدل مـــرمطة الفاعـــل، ولكنـــنا لم نجد قرشا ولا نظافة وإنما ناس فى منتهـــى البـــرود والـــرزالة، كـــل الطائفة، الوكلاء والعيال بتوع المحـــلات وحتـــى الزبائن، تحس أنهم شواذ، لا ليس شواذ وإنما مرهـــرطين ولا تأخـــذ منهم إلا ابتسامة لعينة لا تعرف إن كانت ســـخرية مـــنك أو إشفاقا عليك، ظللنا شهورا نوزع الشرائط على

محـــلات شـــبرا ونواحيها بمنتهى الجدية والإخلاص وفى النهاية ضحكوا علينا.

الدكـــتور اشـــتغل فترة فى جراج وأخرى فى فرن وثالثة فى محـــل أقمشة ولكنه لم يركز فى شغلانة وكان يحلم طوال الوقت بالعمـــل بوابا لعمارة، ويصفه باعتباره النهاية اللائقة لواحد مثله، تقعد على الدكة وتقبض وتتفرج ع الرايح والجاى، وكالعادة اهتم بالموضـــوع ودرســـه جـــيدا وحدد عمارة بعينها، عمارة الممثلة بمـــصر الجديـــدة، وضحى بالميتين جنيه اللى حيلته حتى اشتغل فيها.

اشـــتغل مـــساعد لعـــبده البواب، وهو بواب رسمى، نوبى وأســـمر وكسول ومحب للكلام والسهتنة، والعمارة كبيرة، وتحتها بـــدروم فيه جراج وسبع أوض بالأبلكاش، واحدة محكمة لها باب يقفـــل لمبـــيت الـــسائقين والباقـــى مجرد ضراويات عليها ستاير للعملـــيات، فـــى النهار بنات بالجلاليب السوداء والملايات اللف، وفـــى اللـــيل بـــنات ع الموضة، والزبائن متوفرين من النوعين، الملايـــات اللـــف سواقين وبوابين وخدم المنطقة كلها، والموضة، الوظويظ كما يقول الدكتور للبهوات، وشغلهم عادة خارجى، يأتى البيه بسيارته ويأخذ الواحدة ويتوكل .. أتمنى ألا تظن أنها دعارة، فهى خدمة خيرية، صدقنى خدمة خيرية يقدمها عبده البواب دون أى مقابـــل، أو قل دون المقابل الذى تستحقه، لا أعرف ماذا أقول ولكـــن الـــرجل كـــان يحب هذا الشىء وينصح به ويعزم بمجرد

الـــتعارف، وكانت تتملكه نشوة غريبة وهو جالس على الدكة أمام العمارة بينما أحدهم يركب إحداهن فى الداخل.

طـــبعا الدكـــتور كـــان على علم بالموضوع، وربما لم يحلم بالعمـــارة إلا مـــن أجلـــه، ولكـــن حينما وجد نفسه وسطه خاف، ســيطرت علـــيه كـــل هلاوس الحكومة والبلد والحرام والنيران المـــشتعلة، وقرر الانعزال، صباح الخير يا جارى انت فى حالك وأنـــا فى حالى، يقوم بشغله على أكمل وجه، يمسح سلم العمارة ومـــدخلها ونصيبه من العربيات ويقضى طلبات السكان وينزوى جانبا، وحينما تبدأ العمليات يترك المكان برمته.

لكـــنه لم يصمد طويلا، وكون المسألة خيرية طمأنه وشجعه، واشتغل فترة بالنظرية الشهيرة "هذه نقرة وهذه نقرة "، وكان ينهى مـــع البـــنت بـــسرعة حتى يلحق الصلاة بالمسجد، ثم سرعان ما تعرف على السائقين واندمج معهم.

كانـــوا حوالـــى ســـبعة، وكل خميس يقيمون حفلة فى أوضة كبيرهم علاء السائق الخصوصى للبشمهندس مع الوظويظ، شرب ورقـــص وجـــنس جماعـــى، والدكتور هاص معهم، وحكى لنا الأســـاطير عن الهنجرية التي تقبض على الواحد مثل الكماشة ولا تتركه إلا جثة هامدة، وعن الليلة التى ارتمت فى أحضانه إحداهن عارية لا لشيء إلا إطفاء نار غيرتها من زميلتها التى تتأوه تحت سائق على السرير المقابل، ولكنه لم يسترح لهم أبدا، وركبه الشك والـــريبة والخوف والإحساس الفظيع بالذنب، وكان يتوقع دائما أن يفعلـــوا فـــيه شئيا وهو سكران، أو أن الحكومة ستكبس ويشيلوه

الموضـــوع، واحتار فى أمره، لا هو قادر على التضحية بالمكان، ولا هـــو قادر على مواجهة الأخطار المتوقعة من المكان، وهداه تفكيـــره لتأمـــين نفسه، اتخاذ كل الإجراءات والاحتياطات الكفيلة بإثبات أنه ليس له أى علاقة بالموضوع، ولكنى لا أعرف إن كان ســـجل لهـــم مـــن باب المبالغة فى الحذر أو من باب الرغبة فى الانتقام، شريط ساعة ونصف من السكر والعربدة والأخطر الكلام اللى يودى السجن عن الممثلة وصديقتها وزوارها من علية القوم.

لـــيت الدكـــتور احـــتفظ بهذا الشريط على الأقل كان سيميزه لوقعت الفاس فى الراس، ثم إن مجرد نقله هنا متعة فى حد ذاته.

خائن وعميل

عربية الأمن المركزى كانت ممتلئة كالأتوبيسات العامة، خمسين طالب طالب لائق وطالب معوق وطالب ابن ضابط شرطة خرج قبل أن نتحرك، نفس العربية الزرقاء إياها، وأثناء طلوعى سلمها رأيت طالب معرفة، لم يكن بيننا أى علاقة، ولكنا صرخنا واحتضنا بعضنا بكل فرح ولهفة، وتأرجحنا وكدنا نطيح فوق الناس، وقلنا معا "شوفت.. شوفت اللى حصل" وانفجرنا فى الضحك، سيل جارف من الضحك، حاولت أن أتماسك، وحذرت نفسى من ويلات الصفع والركل، ولكن هيهات، ويبدو أننا عديناهم، العربية كلها، ضحك متواصل وضرب على الأكف والأرداف وحتى الأقفية، حتى العساكر ضحكوا، وشحنونا على مديرية أمن بنى سويف، والمسافة بين المعهد والمديرية قضيناها فى الضحك، ولو رأيتنا فى عربية الأمن المركزى لظننت أننا فى رحلة أو حتى فرح، وأمرونا بوضع أيدينا فوق رؤوسنا ونزلنا فى استقبال مديرية أمن بنى سويف، وأوقفونا صفين وأمرونا بالجلوس وربطوا عيوننا.

وأدخلونا اثنين اثنين على شخصية لابد أنها خطيرة، وسمعت صرخات وآهات تنطلق بين فينة وأخرى، وكم ارتعبت عندما سحبنى أحدهم، كل خطوة أحس أنى أتقدم لحتفى. شىء مهول أن تجر مربوط العينين فى مكان كمديرية أمن بنى سويف. سرنا مسافة طويلة، قيل لى فيما بعد أنها لا تزيد عن مئة متر، ولكنى أراهن أنها تزيد عن الكيلو متر، وكان الحل فى الطاعة العمياء، إشعار ساحبى أن تحت يده شخص فى منتهى الغلب والمسكنة، ونزلنا سلالم وصعدنا سلام ومشينا فى طرق وممرات حتى أحسست أننا دخلنا على ناس، وتخيلت نفسى مربوط العينين وسطهم، وقلت لابد أنهم الشخصيات الغامضة المخيفة التى ربطت عيوننا أساسا حتى لا نراها، وفجأة أحسست باقتراب أنفاس وهمهمة، وكانت يدى مازالت على رأسى فضغطها ومت فى جلدى لكن ضحكة جماعية أراجتنى، وقال أحدهم ما تخافش، وأضاف بهدوء من يدلى بمعلومات حربية "من الفيوم، مركز أطسا دانيال، والده متوفى وتعوله أمه هو وإخوته الأربعة، ولدين وبنتين، ومصدر الرزق فدان وحيد تركه والده". وسألنى بحنان واضح شاركت ليه فى المظاهرة يا حمدى، فقلت والله العظيم ما شاركت أنا كنت واقف فى المعهـــ .. ولكنه قاطعنى "ما تحلفش يا حمدى، إحنا عارفين كل حاجة، إيه رأيك بقى فى رئيس الجمهورية "وعلى الفور قلت والله العظيم ما أعرفه، ولكنى تراجعت بسرعة قصدى قصدى، وعلقت على قصدى، فقال متخافش، إيه اللى تعرفه عنه، فقلت مين حضرتك فابتسم وقال

الرئيس فقلت معرفش حاجة معرفش أى حاجة بشوفو فى التفزيون والجرايد بس، وكدت أدعو له بالصحة والعافية ولكنى خفت أن يفهمنى غلط، فقال "طب إيه رأيك فى السيد وزير الداخلية؟ "فقلت" إنه وزير الداخلية" وأعجبتنى الإجابة فكررتها إنه وزير الداخلية. فقال أنت متهم بالتجمهر وتخريب ممتلكات عامة والتآمر لقلب نظام الحكم، وبينما أقول أننى ليس لى فى الموضوع وأننى كنت واقف فى المعهد.. اندار على زميلى، والحقيقة أن إجاباته أخجلتنى من نفسى، كان قويا وشجاعا لدرجة أن الضابط نفسه خاف منه ولم يسأله إلا سؤالين، كلمتين ورد غطاهم :

- ما رأيك فى السيد الرئيس؟
- جبان وعميل ويحق جهاده وقتله على كل مسلم.
- ما رأيك فى السيد وزير الداخلية؟
- نفس الكلام جبان وعميل ورأس الزبانية ويحل قتاله ودمه.

وخرجنا، وحمدت الله على أننى خرجت ماشيا على قدمى، وسحبونا مربوطى العيون على الحجز، والإخوة هتفوا فى الحجز، وصوتهم هز أركان مديرية الأمن وبنى سويف كلها، والحقيقة أنى أعجبت بهم ولكنى ركزت فى الدعاء (سمعت أحدهم يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال اللهم ارفع عنى الضرر وما يمكرون إنك السميع العليم ثلاث مرات لم يصبه مكروه فى يومه وليلته) وأنا قلتها عشرة، عشرات، وأنا أبحث عن مخرج، منقذ من المصيبة التى وضعت نفسى فيها."

لى قريب كان يعمل ضابطا واستشهد فى التسعينات برصاص المقاومة الفلسطينية فى رفح، وأيامها كان يعمل فى تموين بنى سويف وسألت عنه العسكرى وجاء ولكن ليته ما جاء، بدل ما يطمننى ويساعدنى أرعبنى أكتر، بمجرد أن رآنى انهال "إيه اللى جابك هنا .. إيه اللى دخلك مع الناس دى. .إنت مالك؟"، ولكنى قاطعته "أنا مش ناقص أسئلة، أنا اتهريت أسئلة، إن كنت هتعمل حاجة اعملها مش هتقدر مع السلامة" فبرطم وانصرف غاضبا ولم أره إلا فى سجن بنى سويف العمومى.

ملاعب صغيرة

سوق الفاعل له أماكن معروفة كالشمس فوق الكبارى أو حول الميادين، ولكننا اتكسفنا من قعدة السوق، وكنا نقعد على قهوة سالم فى أول منية السيرج من ناحية الشيخ رمضان، وكنت أحبها من أجل سالم، لم يكن صاحبها ولكنه كان يتحرك باعتباره صاحبها، وأكثر ما حببنى أنه كان يستخسرنا ع الفاعل، ويعتقد أننا " شباب زى الورد مش وش مرمطة فى المعمار"، ولكن القعدة ع القهوة غير مضمونة، إمكانية الحصول على يومية تساوى بالضبط إمكانية العودة ومواصلة النوم فى الأوضة، وفى فترات كساد المعلم مطر كنا نخرج مع أى واحد ولأى مكان. ومرة خرجت مع واحد قال إنه مقاول واتفق معى على حفر قواعد عمارة فى الهرم، وأخذنى فى سيارته، وعاينا الموقع على الطبيعة، قطعة أرض محاطة بسور حول ملاعب صغيرة من الجير، وقال " شد حيلك .. القاعدة بعشرين جنيه والحساب آخر النهار " وركب سيارته ومضى، وشديت حيلي، وحفرت قاعدتين وجاء آخر النهار ولم يأت، وظننت أن ظروفا منعته، وفى اليوم التالى عدت فقط لكى ألومه وأقبض القاعدتين،، ولكن بمجرد أن

اجتـــزت الـــسور فكرت أن الأوفق قضاء الوقت فى حفر قاعدة، وبـــدل الأربعين أطالب بستين، فى اليوم الثالث لم أكمل، أحسست أنى أحفر فى الوهم، ولكنى لم أتنازل عن النظر للقواعد باعتبارها احتياطـــى اســـتراتيجى، وظللت أياما وشهورا كلما ضاق الحال على القهوة أعود إليهم بآمال الحصول على دين مستحق وفى كل مرة لا أجد أحدا .

السجن الحربي

فى الليل نقلونا إلى مكان قريب قيل إنه السجن الحربى، وتحس أنه مبنى تحت البحر، تحت النيل الخالد، بدروم طوييل مظلم ومبلط أو قل مزلط من فوق لتحت بالأسمنت، وفى آخره دورة مياه تنز من كل جانب، ولدى وصولنا كان به سراير من نوع الدورين، وأوقفونا طويلا حتى رفعوها، ونظفوه ومسحوه جيدا ودخلنا، وأعطانى أحدهم صفحة من جريدة أظنها الوفد وفرشتها ونمت، وضربت عشرة سريعة حتى أستغرق فى النوم، واستغرقت، وحلمت بأننى أعذب، وصحوت وإذ بى أعذب، وظننت أنى مازلت نائما وكمنت وترقبت وإذ بى أتعذب فعلا، نخص أو قل طعن مؤلم فى جنبى، وقلت ها هى البداية، وقمت مفزوعا وهممت بالفرار وإذ بى أصطدم بوجه باش يقول لى "صلاة الفجر يا أخى" كم تمنيت أن أخنقه، آكله أكلا، ولكنى استعذت بالله وقمت وتوضأت ومسحت جانى الأيسر والأيمن وصلينا جماعة ونمنا، وصحوت على بقعة من الشمس تسقط من طاقة ظللنا نتزاحم عليها بالمناكب كل صباح، ومر يوم والثانى والثالث ونحن فى هذا الحال، فى الليل نفترش البدروم بأوراق

الصحف وننام وفى النهار نتزاحم حول الطاقة، وطبعا الإشاعات رائجة وفى تجدد مستمر، اللى يقول إننا محجوزين فقط لتهدئة الثورة التى قام بها أهالى بنى سويف ساعة القبض علينا وأننا سرعان ما سنخرج، واللى يقول إن موضوعنا خرج من بنى سويف، وإن إذاعة لندن ذكرتنا بالاسم وأن الموضوع وصل إلى أعلى السلطات وإنهم سينقلوننا إلى سجن طرة ويمكن الواحات، وكلما نسأل متى نخرج يقولون بُكرة، وبكرة يقولون بكرة، حتى كرهت كلمة بُكرة وكان الأسهل على أن يقولوا بعد سنة أو حتى عشرة حتى أعرف مصيرى وأرتاح.

وذات بُكرة، قبيل الفجر، شحنونا على نيابة أمن الدولة، ودخلنا على وكيل نيابة شاب بدا متعاطفا منذ البداية، وقال ميهمكمش، كلنا عملنا زيكم كده، وعزم علينا بسجاير وشاى وبسكويت، وأنا شخصيا دخنت واسترحت لدرجة أنى اضطجعت على الكرسى وبدأ التحقيق: أنت متهم بالتجمهر مع أكثر من خمسة وإتلاف ممتلكات عامة والتآمر لقلب نظام الحكم "، وقبل أن أجيب أملى مساعده "محصلش" والتفت إلى وقال باسما "أنت هتعرفنا شغلنا، ولا عايز تعلمنا القضاء؟"، وسأل وأجاب بكل ما يؤكد أننى يجب الإفراج عنى فى التو واللحظة ويعتذروا لى كمان.

وفى الصباح، أو قل الضحى شحنونا فى عربية ترحيلات خرجت من بنى سويف واتجهت شمالا، وكان الناس يشيرون لنا فى الشوارع وبعضهم يهتف "الله اكبر"، وبدا أن شنعة سجن طرة

ستتأكد، ولكنها انحرفت في الطريق ودخلت سجن بني سويف العمومى، واستقبلنا المأمور، وهو شاب وسيم مرح له شارب مشرئب، وهدأ من روعنا وطمأننا هو الآخر، وقال إننا ضيوف هنا، وإننا سنخرج، وإننا محتجزون فقط لتهدئة الأهالى، وإنه لن يأمر بحلق رؤوسنا وإننا سنظل بالملابس الملكى هكذا، ولكنه حذرنا من المساجين، وركز على طول حرمانهم، وقال إنهم مُدد، تأبيدات، أقل ما فيهم عشرة وخمستاشر سنة، وطبعا الواحد يتنشق ع الهوا الطاير، وإحنا من الجهة دى مش مسئولين، واللى يسها على نفسه هو حر، وصرفنا.

مبنى السجن عبارة عن مستطيل طويل من ثلاثة أو أربعة طوابق يربطها سلم حديدى بدرابزين وزنزاناته متجاورة وتفتح من الجانبين على طرقة ضيقة تتحول إلى سوق طول ساعات الفسحة، سوق حقيقية رائجة بكل شىء، من اللب والسودانى للبانجو والحشيش.

خصصوا لنا زنزانتين فى الدور الثالث، مدد الإعدام والسرقة وما أشبه، وسلمونا بطاطين، كل واحد اتنين، وكم استرحت حينما وضعوا الإخوة الملتحين فى زنزانة وغير الملتحين فى زنزانة، وبمجرد دخولنا انكب علينا المساجين، استقبلونا استقبالاً يليق بأبطال، عناق وأحضان ووجوه متهللة فرحة بلقيانا، وكل واحد منهم جاء بشيء وأعطاه لأول طالب قابله، أكل وشرب وعصائر وسجاير وحتى بطاطين، وكل يسأل عن بلدياته ومعارفه، وكم فرحت بهم، وتمنيت أن أحتضنهم

جميعا، ولكنى خفت من كلام المأمور، ولم أستبعد أن يخاتلنى أحدهم وينقض على، وانزويت جانبا ونويت أن أبتعد عنهم تماما.

وحلت ساعة الانصراف، وأغلقوا علينا البيبان ونمنا، وفى الصباح رفضنا الإفطار، رفضناه كسلا وربما قرفا، ولكنهم ظنوا أنه إضراب، وجاء المأمور مذعورا لكنه فهم الموضوع بسرعة وأمر بتحسين الطعام، وجاء الغداء وتغدينا جماعة، وعدت إلى بطانيتى، ودخل الزنزانة مسجون فى حوالى الخمسين من عمره، ومد حِجرا مليئا بالبرتقال ومر به على الطلبة حتى وصلنى، ولكنى رفضت بحسم ونرفزة فلمّ حِجره مكسوفا ومضى.

وتانى يوم، بمجرد فتح الأبواب، صحوت على صوت يسأل " حد من الفيوم؟ " وهممت أن أقول أنا ولكنى بلعتها، وسأل مرة أخرى وأجاب أحد الطلبة " أيوه فيه حد م الفيوم " وأشار له ناحيتى، وجاء " أنت م الفيوم " فقلت "لأ" فقال "لا من الفيوم .. منين من الفيوم " فقلت "من أطسا" فقال "منين فى أطسا" فقلت م الغرق " فضحك وقال " أوعى تكون من عيت فلان؟ " فقلت " من عيت فلان " فقال " يخرب بيتك ومالك كاشش كده دا احنا جيران وحبايب، أنا من "منية الحيط" عارفها؟ واتسجنت مع جماعة قريبك سنة ٨٣..."، وقال أسماء من أقاربى قبض عليهم فى معركتنا مع الواحية، وقال قوم معيا، وقمت، وأخذنى إلى زنزانته وأعطانى فوطة وصابونة وقال لى استحمه وأنا مستنيك بالفطار، واستحميت وعدت، كان يقيم مع أربعة كلهم إعدام، قضايا قتل يعنى، وكانت زنزانتهم منظمة نظيفة غنية بكل ما يخطر على بالك من سبل

الراحة والتسرية، ومن يومها لمِ أفارقه حتى الإفراج عنى، وفطرت فطورا فلاحيا لذيذا، مش وجبنة قديمة وعيش محمص وخيار وطماطم وفلفل، وبدأت أرتاح، وتمتمت مع نفسى دعوة أمى الأثيرة "يوقفلك قلوب الخير". وحكيت له القصة من أول القبض على حتى جلوسى أمامه، وحكى لى قصة سجنه مع أقاربى وقال إنه مظلوم ولكنها الأقدار، وجاء بتاع البرتقال، وقال " خفت منى يا عبيط، تصدق بالله لو البطنية اللى تحتى أتحركت لأنام معاها ولكن انتو لأ "، وضحكنا وتعارفنا وهو شخص ظريف مرح قادر على إضحاك طوب الأرض، ويعمل هجاما، ويقضى حياته بين السجن والسطو على الشقق، وطوال مدة إقامتى فى السجن كنت أقوم معه بمسرحية لا أعرف لماذا كانت تفطسنى من الضحك؛ كلما أقابله أسلم عليه وحينما يهم بالمشى أقول له استنى يا عم شحاته، وأعد أصابعى وأتأكد أكثر من مرة أنها كاملة وأقول له اتفضل يا عم شحاته ونضحك.

ومن يومها لم أفارقه، أقصد بلدياتى الشهم وزملاءه من القتلة والنشالين، كل صباح، بمجرد فتح الأبواب يأتينى بالفوطة والصابونة ويناولنى علبة السوبر وينتظرنى بالفطار وأظل عنده حتى ساعة إغلاق الأبواب، وحينما نادوا اسمى للإفراج عنى كنت عنده، واحتضنته كثيرا وبكيت وحلفت له بأغلظ الإيمان أننى سأزوره كثيرا.. ولكنى للأسف لم أفعلها أبدا.

كيف أناديك يا أمي

حتى الآن كنت متماسكا، خفت بالطبع ومت فى جلدى ولكنى لم أصل أبدا لدرجة البكاء والولولة، وفى سجن بنى سويف تماسكت أكثر، وكبر أحكام الزمل وتراوحها بين التأبيدة والعشر سنوات جعلنى أألقم نفسى على سنة، وقلت أستغلها فى إعادة الثانوية العامة لتحسين المجموع، وكل صباح كنت أتقافز بمرح ونشاط وأحيانا دندنة إلى دورة المياه وأفطر وأضحك مع المساجين طول النهار، ولكن مع زيارة أمى انهرت، انهمر علىَّ كل ما يمكن تصوره من مشاعر الإذلال والمهانة والحرمان والحبس، الزيارة وجها لوجه كانت ممنوعة، وسمحوا لنا بأن ننظر لأهالينا من فتحات الزنازين، وأمى كانت وسط الناس ولكنها لا ترانى، تظلل عينيها بيديها وتلف على الشبابيك، وأنا احترت كيف أناديها وأدلها على موقعى فى شباك الزنزانة الثالثة بالدور الثالث، خجلت من مناداتها من هذه المسافة، الناس بعدد النمل بالخارج وحولى مساجين بماذا أناديها، يا أمى يا مامى، اتكسفت من الاثنين، وفكرت أن أناديها باسمها، يا.. ولكنه لم يخرج، ولا أعرف لماذا صعب الأمر لدى لدرجة أننى اختنقت، وأخيرا طلبت

من أحد الزملاء أن يندها لى، شايف الست اللى بطرحة سودا اللى هناك.. هناك أهه ..اندهالى قولها يا ابنك جنبى أهوه، وانفجرنا فى البكاء.

أصابع طويلة ناعمة

منذ زمن لم أتوتر بهذا الشكل
لم أرتبك وأحتار وأتأرجح بين الإقدام والتراجع
أنا كبرت
سأموت فى الخامسة والأربعين
سيدة مجنونة بوشم وشناف بصت فى عينى وقالت هتموت صغير، مش هتعدى الخمسة وأربعين. كنا عائدين من مباراة أو فرح، وكنا حوالى عشرة، والسيدة التقيناها فى الطريق، ولا أعرف لماذا شعرت بالزهو، ونظرت للأولاد بثقة من يعرف أنه ممسوس بشكل ما.
كنت فى الإعدادي
أولى إعدادى
وكنت متوترا وحائرا وقليل الحيلة
أحب وأشتاق وأتعذب وأبدو أمام الجميع متماسكا وأبيا، لا أحب ولا أشتاق ولا أتعذب
يمكنك أن تقولى إننى كنت أعمل ضد نفسى
ضد ما أريد بالضبط

الآن
وأنا أكتب لك
جاء تلفون من البلد
وليد ابن عمى

ثائـــر وعلى وشك الانفجار فى التلفون وقال يا حمدى ثم قال يـــا أســـتاذ حمدى وأخبرنى أن أعداءنا، أقصد أعداء قبيلتنا، على وشـــك تحقيق انتصار كاسح، أعداؤنا أقوياء حقا ومصرون على النـــزال، صـــراعنا معهم قصير ولكنه مزدحم بالأحداث الجديرة بالذاكرة، ذاكرتنا وذاكرتهم، نحن نسحقهم فى الجبال، على أرض الواقـــع، وجهـــا لوجه، حيث تكون السيادة لقوانين الماضى، وهم يـــسحقوننا بالحكـــومة والعلـــم والوظيفة والقوانين، خالى ضرب كبيرهم وربطه فى النخلة وقال ما يشبه الحكمة الشعرية

"الكلب نين يسمن اطول انيابا
ويبقى ينهّش جيرتا واصحابا"

وكبيرهم رفع قضية وأثبت أنه أصيب بعاهة مستديمة، وحكم علـــى خالى بثلاثة أشهر، وانتقم، وتحرك فى النجوع بزهو القادر على جر مشايخ العرب للسجون، وخالى نفسه هيأ له الأمور، كدنا نقـــبل قدمـــيه حتى ينكر، أمام السلطات، أنه ضربه، ولكنه أصر علـــى أنه ضربه، لكى يقول أنه ضربه وأنه قادر على ضربه فى أى وقت.

وأنـــا اضطرتنى الظروف لمواجهة أظنها الأخيرة معهم، لم تعـــد الظـــروف مهيأة لمثل هذه الصراعات، إما أن يقبلوا بقوتنا

وتاريخنا وإما أن نقبل بنفوذهم، وأعترف أننى معجب باستماتتهم فى مواصلة النزال، الحقيقة أنهم وصلونى أقوياء، وظائف مؤثرة ومخيفة بالنسبة لبواد يأنفون بل يرهبون أى تعامل مع السلطات المختصة، وقصتنا معهم هى القصة المعروفة، نحن عائلة بدوية قديمة فى المنطقة، أقصد المنطقة الضيقة الخاصة بالصراع بيننا وبينهم، وهم بيت وحيد جاء للمنطقة حديثا، وصاحبه أو مؤسسه كان يرعى فى أراضى جدى، ليس جدى الكبير ولكن الخامس عولة جدى لأمى، ولكنه كان فلاحا شاطرا ودءوبا وجادا ومجتهدا، ولائقا بتأسيس بيت أو حتى قبيلة، والأهم أنه كان يعرف أنه يزرع نبتة فى أرض غريبة وغاشمة، علم أولاده، أو النابهين من أولاده على أعلى مستوى، معظم أندادهم من قبيلتنا لا يفكون الخط، ثم إننى لا أتمتع بتهور أو فلنقل بإقدام خالى الذى ربط أحدهم فى النخلة، ليتنى أستطيع فهذا أريح وأشرف كثيرا من محاولة إثبات أننى مرهوب الجانب فى الدوائر الحكومية .

نعود لموضوعنا.

أعداؤنا، وقانا الله، على وشك انتصار.. فليحققوه

كنت أحب ابنة عمى

اسمها سحر

كنت أظن أن صحرا بالسين، وكنت أحس أن أغنية "يا صحرا لمهندس جى" كتبت خصيصا لنا، هى السحرا وأنا المهندس، ولكنى كنت أحاول أن أظهر وأحيانا أعلن أننى لا أحب أو حتى أهتم بابنة عمى، كنت من الطائفة الخيرة التى ترى

الاعتـــراف بالحـــب ضـــعف وإهانة، الواحد يتحب آه ولكن يحب ويتمرمط ويحط نفسه فى الميزان يا إما تطب يا إما تقب فلا وألف لا...

هل أعانى من هذه الخصلة حتى اليوم

هل أرى فيك سحر أخرى

كنت فى الإعدادى وكنت لا أرى من تبعات الحب إلا صعوبة الاعتراف

وكـــنت أتمنى أن تأتينى سحر وتغمض عينها وتقول بالضبط ما كنت ألتاع من إحجامى عن قوله لها

الآن أنا كبرت وسبلت عينى وقلت مرة ومرات

هل أكذب، طبعا أكذب

أقـــول " أحـــبك" بسهولة حينما لا أقصدها وأبلعها وأزور بها حينما أقصدها

والغـــريب حقا أن اللواتى كذبت عليهن انجذبن لى وأحببننى أكثر من البائسات اللواتى منعنى الصدق من الاعتراف لهن

يـــبدو أن الـــواحد يكون مقنعا أكثر حينما يتخلص من أعباء المشاعر... الصادق منها على وجه الخصوص

إنها طريق خطرة مليئة بالتوتر والحيرة والقلق والخوف .

تلك حياتنا ونحن أحرار فيها

ثم أننا أقلعنا عن ذلك وليتنا ما فعلنا

وابنة عمى كانت تشبه الممثلة راقية إبراهيم، عينيها بالذات، وكانـــت نـــشيطة وجريئة وتفعل ما تريد، أحيانا يعن لى المقارنة

بينكما، هى الآن زوجة وأم لحوالى سبعة، ولو رأيتها الآن للمتنى كما لامنى آخرون، ولكننى أجد الطول، ليس الفارع أو الشامخ أو المبالغ فيه، ولكنه الطول الأطول قليلا مما هو المعتاد لامرأة (أعجبتنى مسألة الطول والأطول وفكرت فيها لحظات) وهناك النحافة، النحافة كما يقول الكتاب، تلك الأجساد المنعشة، ليس المثيرة وإنما المنعشة التى تولد فى الواحد ملكات لم يكن هو نفسه يدرى عنها شيئا، كلما أراك أشهق، ليس كلما أراك فقط وإنما كلما أتذكرك، أحاول استعادة شهقتك، يا سلام، يا لعذوبتها وسحرها وفتنتها ...

يبدو أننى، لنزق بدائى متوارث، سأنجرف، سأستبدل ما هو أدنى بما هو خير، سأستخف بالروح وأخوض فى الجسد، سأستبدل ما هو سام ونبيل ومحلق فى سموات الأخلاق الكريمة، بما هو شهوانى وموطن تاريخى للخطيئة، ولكنى لا أفهم حقيقة اضطهاد البشرية لأجسادها هكذا، يبدو أن الموضوع خرج منى، أردت إقناعك، أنت، فقط، وإذ بى أحاول إقناع البشرية جمعاء، ولكن الموضوع ملفت فعلا، انظرى، انظرى، كل شىء محرم على الجسد، أما الروح فهى طليقة، أنت نفسك تتركين روحك تلعب على راحتها وتقيدين والأدق تلجمين جسدك، نحن هكذا، المحب الذى يجرد الجسد والأدق يعطله ويشله أرفع لدينا من المحب الذى يحييه، الأول نجلّه ونحترمه ونعجب به ونحفظ قصصه وأشعاره، رسولنا نفسه وعده بجنات النعيم، قال "من أحب وعف دخل الجنة" والثانى نجرمه ونلعنه ونصفه بأحط الأوصاف،

أنـــا أيضا كنت أرسل روحى لسحر، أكره هذه المجازات، ولكنى كـنت أرســل روحى لسحر حسب نظريتك فى إرسال الأرواح، الفــرق، أننـــى لم ألعب، ليتنى فعلت، كنت أفرح وأكتئب وأشرف علـــى الجنون لأشياء عرفت فيما بعد أنها لم تكن تعنى لها شيئا، يبدو أن روحى كانت تكذب على، تمدنى بأخبار مضروبة، كنت ألـــف العـــزبة كلهـــا حتى أمر أمام بيتهم دون أن يلحظ أحد أننى أقـــصد المـــرور أمام بيتهم، رحلات يومية أتعجب حتى اليوم من مثابرتـــى عليها، ولكن ذروة، أو الحدث الذى أذكره بحذافيره من علاقتـــى بـــسحر، وقع فى مكان آخر، كنا فى فرح، يبدو أن لدى حنين للأفراح، أثناء زهوى ببشارة الموت قلت إننا كنا عائدين من فرح، وها أنا ألتقى بسحر فى فرح، هل كانت هناك أفراح فعلا أم أن الحنين المباغت للأفراح هو الذى صور لى الأمر هكذا، يمكنك أن تعتبـــرى هـــذا مـــدحا أو غزلا، أو حتى اعترافا بأنك – رغم بعـــض المحـــبطات – صـــنعت شيئا مبهجا فى حياتى، حتى لو افتـــرقنا، لو اكتشف كل منا أنه خدع وأشعلناها حربا على بعضنا الـــبعض، سيبقى ذلك الإحساس بالسعادة والفرح والاندفاع الأهوج فى الضحك.

المهـــم، كان نجعنا ينتظر واحدا من أفراحه، وكانت الأفراح ســـاحتنا المفـــضلة، ازدحـــام الـــنجع فى مكان واحد يسمح حتى بالاحتكاك المباشر، جلست جنب سحر، كانت على دكة وانحشرت جنـــبها، وفكرت فى الأمر، صديق ناصح أشار على بشىء كهذا، قـــال "مضيعش الفرصة، فى الفرح اقعد جنبها، ومن غير ما حد

ياخــد بالـــه مــد إيدك ناحية إيدها، حطها بالراحة على صباعها القـــريب، إن رفــضت، شدت إيدها يغنى، اعمل إنك مش واخد بالـــك، وإن ســكتت هنيالك يا عم". لا أذكر أننى كلمتها من قبل، كـــنت فقـــط ألف العزبة كلها حتى أتمكن من التلصص على بيتهم للحظات دون أن ينتبه أحد، ولكنى حاولت، كانت ترتدى فستاناً لا أذكر لونه، حاولت كثيراً وفشلت، أتعجب من أولئك الذين يتمتعون بذاكـــرة ملونة، أتذكر فستان ابنة عمى، طوله وجردته، اليد التى وضعت عينى عليها كانت تنتهى بأساور، ولكنى لا أذكر ألوان..

يـــدها رغـــم الـــزحام كانـــت فـــى المكان المناسب، ترقبت وتلصصت وتحينت الفرصة، وعندما حانت وضعت يدى بجانبها، ثـــم تـــركتها تواصل زحفها على أطراف الأصابع حتى استقرت فـــوقها وتأهـــبت، لو شدت يدها مازال فى الوقت متسع لكى أبدو وكأننى لم أقصد، ولو لم تشد.. هنيالك يا عم.

أم حسن

أنـــا خريج معهد "أم حسن"، هذا هو اسمه، جبت خمسين فى المـــية ودخلـــته وهو يعطى خريجيه شهادة دراسية محيرة، فوق متوســـط وتحت عالى، على المستوى الرسمى يتبع وزارة التعليم العالى، وعلى مستوى الواقع، مؤهلات الوظيفة والزواج والمكانة الاجتماعية يعامل معاملة الدبلوم، وطلبته، وهم زملاء أعزاء، فى الغالـــب فقراء وكسالى، فلو كنا مجتهدين أو حتى نصف مجتهدين كـــنا دخلـــنا جامعات حكومية، ولو كنا أغنياء أو حتى متوسطى الحال كنا دخلنا جامعات خاصة، يمكن القول أنه لا يدخله إلا من لا حيلة له فى نفسه وظروفه.

وهـــم، فى الغالب الأعم، أصحاب تقاليع، ويستعينون بالخيال لتحـــسين أوضـــاعهم، عادة يقولون أنهم جامعيون أو على الأقل يواصلون الدراسة، والمجتهدون منهم يواصلونها فعلا، أما الغالبية فيحتارون فى أمرهم ثم يتركون أنفسهم للظروف، يمكن أن تعتمد علىّ كوحدة قياس، أنا الآن تارك نفسى للظروف، أعمل فترة فى شـــبرا وأخـــرى مـــع المعلم بكر وأنتظر. وهو يشتهر فى شمال الـــصعيد، وربما فى القطر كله، بالانحلال أو قل الخلاعة، اسمه

نفسه ينسب لمواطنة سويفية كانت تدير ماخورا بالقرب منه وقيل داخله.

الدراسه به سنتين، العام الأول، الشهور الأولى، كانت كابوسا، وأنا نائم كنت أهلوس وأبول على نفسى وأسقط فى عز النوم من على جبال ومبانى وأحيانا حيوانات شاهقة، وأنا صاحى كنت أتبرأ منه، أقول للجميع وخصوصا أهلى أننى أعيد الثانوية العامة، وحتى اليوم أبتعد فى الكلام عن مسألة المؤهلات، وحينما يتذكر أصدقائى سنوات دراستهم أكتئب، أحرج وأكتئب وأغير الموضوع بكل ما أوتيت من لباقة ومناورة، عزبتنا على ما تشتهر به من جهل تتعامل معه باعتباره سقطة، أن تدخل الثانوية وتعوِّدهم على نظرات تليق بابن متفوق، ثم تدخل معهد أم حسن، يعنى أنك سقطت فى نظر الجميع، لى خالة متسلطة تعاير أمى بى حتى اليوم، على ما تتمتع به من جهل وبؤس تضطجع وتقول "هضا معهد الحمير".

و"أم حسن" يقع فى بنى سويف، وهى تشبهه إلى حد كبير، تحظى بملاسنات على مستوى القطر كله، والآية بها مقلوبة، الرجال ينامون فى البيوت والنساء يعملن، يشمرن فى الغيطان ويجرين فى الشوارع، وهى أيضا شىء وسط، لا تشتهر بملامح خاصة كمعظم الأقاليم، على المستوى الجغرافى والإدارى تتبع شمال الصعيد وتبعد عن القاهرة بحوالى مئة وخمسين كيلو مترا، ولكنها على مستوى الأخلاق والأزياء وأساليب الحياة بشكل عام ليست من الصعيد أو من القاهرة، لهجتها نفسها شىء مهجن رخو

وممطــوط مــن اللهجة القاهرية واللهجة البدوية، القاهرى حينما يسأل عن مكان أو شيء يقول "فين" والبدوى يقول "وين" أما البنى سويفى وأيضا الفيومى فيمطها هكذا "فاااااا"، والقاهرى حينما يشير إلـــى شيء يقول "ده" والبدوى يقول "هضا"، والبنى سويفى وأيضا الفيومـــى يقــول "ديدا"، وأهلها، لا رجالها فقط، إلا من رحم ربى بائــسون، يــشتهرون بالنحافة والضعف، وتحس أنهم مثالا لقوله تعالى ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله شديد، ويــضربون أسواق أنفار اليومية فى القاهرة كلها، يزايدون عيانا بــيانا علــى العمــال، والقصة معروفة، يأتى الزبون أو المقاول للمصدر، الكوبرى أو الساحة التى ينتظر فيها عمال الفاعل، ويبدأ فـــى التفاوض مع نفر صعيدى، فيقول الصعيدى اليومية بعشرين ويــصمم، فيفاجأ بزميل بنى سويفى أو فيومى يمد رقبته بخصوع ومسكنة ويقول " أنا امشى بخمسة يا بيه".

وبنـــى ســويف، دون محافظـــات مــصر تتمتع فيها المرأة بسلطات واسعة لا ينقصها سوى الاعتراف الرسمى، أى القيادات والمناصـــب الحكومـــية، المرأة جديرة بإدارة هذا البلد، تقريبا هى الإقلـــيم الوحـــيد الذى لن يستغرب الناس لو ترأسته امرأة، النساء هـــناك الكـــل فـــى الكل، الأمور بأيديهن والشورة شورتهن، وأنا شخـــصيا ســـكنت فى سبعة بيوت تملكها وتديرها وتطلع ميتين أم سكانها جميعا امرأة.

بنـــى سويف مدينة صغيرة، ومعهد أم حسن يعتبر من أشهر منـــشآتها وأكثرها ازدحاما بالطلبة المغتربين، فرغم أن بها فروع

لبعض كليات جامعة القاهرة، إلا أن مبنى أم حسن هو الأكثر ازدحاما بالطلاب؛ عبارة عن قصر قديم، ولكنه متواضع، مكون من ثلاثة طوابق ومحاط بسور حديدى وبانيه الأول - الذى يبدو أنه ليس ضليعا فى مسألة القصور - انشغل بكثرة الغرف على حساب المساحات والمناظر، ومبناه القديم متشقق ومتصدع بشكل عام، ويعتبر مرمة مربحة للمعلم مطر، أحيانا كنت أحسبها له، مساحته لا تزيد عن ميتين متر، ولن يحتاج أكثر من عشرة أنفار، تتحفر القواعد وتتسلح وتتصب وتطلع العواميد، وهما شهرين، ستين يوم، ويمكن أقل، وتلاقى التلت أدوار اللى قدامك بقوا خمسة أو حتى سبعة.

قيل إنه أمم فى الستينيات، وأنه كان مدرسة ثانوية قبل أن يتحول إلى أم حسن، وأول ما يقابلك فيه بعد البوابة الحديدية سلم رخامى عريض يوصل إلى الطابق الثانى مباشرة، ويرتبط بيوم أعتبره هاما فى حياتى وفى تاريخ بنى سويف كلها، نزلت عليه أنا والإخوة مرعوبين بعد أن عبرنا عن رأينا فى الحكومة والرئيس وأمريكا وإسرائيل والعالم أجمع "... يا جبان يا عميل الأمريكان".

كان من النوع العتيق، أقصد السلم، قديم ومتين وشامخ وأبلغ ما يؤكد أن المعهد كان قصرا فى يوم ما، وكان محاطا بدرابزين خشبى عريض وملتو بشكل طبيعى، كان يبدو كما لو أنه جذع شجرة واحد فرغ بالرخام، بدايته أو مدخله ناحية الشرق، وفى منتصفه تقريبا يستدير بليونة ليضعك ناحية الشمال أمام مكتب العميد.

قــضيت حوالى شهرين فى شبه عزلة، أجلس وحيدا وأتعمد إظهــار تأففى للجميع، للزملاء، والمعهد بشكل عام، حتى زميلى فــى الــسكن أفهمــته أن زمالتنا لا يمكن أن تستمر، ولكنى كنت أواظـــب على الحضور يوميا، أحضر المحاضرة الأولى، وأصعد الــدور الثالث لألقى نظرة، فإن وجدت بنات أمر من أمامهن مرة أو مــرتين وأقــف قليلا على مرمى بصرهن، ثم أقوم بجولة فى الــدور الأول أبدأها بلوحة الإعلانات وأنهيها فى البوفيه وأشرب شــايا وأغــادر، وكــنت طــوال الوقت أبحث عن زميلة، نظرة فابتسامة فموعد فلقاء.

المبنــى القديم، القصر، فى الأول، سلمه التاريخى يمتد بعد البوابة مباشرة، ونظرا لازدياد أعداد المقبولين كل عام، أقيم على عجــل مبنى آخر، وبينهما امتدت ساحة ضيقة، كنت، أثناء شهور العــزلة –كــدت أقول العدة – ألفها يوميا عشرات المرات، كانت أشــبه بمعرض، بنات من كل صنف ولون، محجبات وسافرات، ولكــن كــان لدى مشكلة تجاه شكلى، وجهى بالذات كان عقدة، كــنت، ولازلت، أحس أنه قديم، ويثير فى النفس مشاعر عدوانية. حاد ومتربص ومخيف ولا يعبر عن حقيقة مشاعرى، بمجرد أن أركز مع واحدة تنتفض مذعورة وأحيانا تغادر المكان، وكنت أظن أن إجــراء بعــض الــتعديلات أو الحركات على ملامحه يحسن الوضع، وطبقت لفترة نظرية لاعبى كرة القدم فى السبعينيات، لا أقــصد بالطــبع البنطلونات الشارلستون والشعور المنفوشة، ولكن تلــك الانفــراجة التى تجعل الوجه مهموما ومترفعا، وفى سبيلها

كـــنت أدعـــك أسناني بالرمل، وأرفع شفتي العليا بإجلال وألاطة تناســـب تلألأهـــا، وأتجـــول بين بنات المعهد عن واحدة يعجبها المنظر.

طالـــبات المـــدن، النظـــيفات، الأنيقات، المتحررات، بحسبة بسيطة أدركت أنهن محجوزات لمواطنيهن، لأبناء العواصم، المنيا وبنـــى ســـويف والفيوم، وطالبات الأرياف جلاميد صلدة، لابد أن تبطح الواحدة حتى تحس أنك مهتم بها، وفى هذه الظروف ذهبت جولاتـــى دون طائل، جربت مع الجميع، بريت أسناني واستهلكت كمـــيات من زيوت الشعر، وحاولت مع كل جميلات المعهد بدون استثناء، راقبتهن أياما، ونظرت إليهن بإعجاب وابتسمت وغمزت بعينـــى، ولما زهقت، ركزت جهودى على واحدة، كانت بلدياتى مـــن الفـــيوم وكانت عفية، طويلة وعريضة،، ومضرب المثل فى الجديـــة والالتـــزام بالمحاضـــرات والـــسكاشن، وإن كان ذلك لم يتمخض عنه أى نتيجة في الفهم والتحصيل، وأول ما نبهنى إليها أنهـــا وقفـــت أمام أحد الطلاب فى البوفيه وتمطعت وصفعته على قفاه.

كـــان من طلبة الكليات الذين يأتون لاصطياد بنات المعهد، وكـــان مـــن الـــنوع الخـــنافس، وكـــنت أكرهه من بعيد لبعيد، واحتـــرمتها، وأحسست أننا يمكن أن نتحد، كانت تناسب ظروفى، وأنا عادة أنفر من ظروفى، منها هى شخصيا ومن الأشكال التى تجـــرها علـــى، ودائما لا أضع عينى إلا على أجمل الجميلات، وهـــذا بالطبع كبدنى خيبات لا داعى للتقليب فيها. ولكنى قلت إنها

تجـــربة، تـــدريب يناسبنى، ثم إنها يمكن أن تحسن وضعى بين بنات المعهد، لا أدرى لماذا أتوقع أن الواحد يصير أكثر جاذبية لو صـــاحب واحـــدة حتي لو كانت مثلها. كنا نتبادل النظرات طوال الـــنهار، وإذا ضـــبط أحـــدنا الآخر يشيح بوجهه ويحاول أن يبدو مـــشمئزا ومتعاليا، كنا تقريبا نعاير بعضنا، يبدو أننى لم أنس أننى الطالب الوحيد الذى حاول معها ولم تنس أنها الطالبة الوحيدة التى استجابت لنظراتى.

ولكـــن أثـــناء متابعتى لها والأخريات، بدأت أستصعب إعادة الـــثانوية العامة، سنة أخرى يمكن أن تضيع دون طائل، ووجدت حانقين مثلى على المعهد والحياة نفسها، وعملنا شلة، ناجى وناجح مشايخ عرب من المنيا وأنا وعبد الونيس مشايخ عرب من الفيوم.

بنـــى ســـويف كانت أول مدينة أقيم فيها بشكل دائم، درست ابتدائى فى عزبتنا وإعدادى وثانوى فى عزبة مجاورة، وزياراتى للقاهـــرة كانت تخاطيف، أسبوع أو اتنين وأعود ملهوفا على أمى. قبل أن أعرفهم، كنت أخجل من نفسى، لهجتى بالذات كانت عبئا، حاولت أن أبدو وكأننى ولدت فى المدينة، عوجت لسانى وقلت آه وليه، لكن مافيش فايدة، بمجرد أن أنطق يعرف الجميع أنى بدوى مـــن أرياف الفيوم، فأضطر لتوضيح أن الظروف تغيرت، معدش فـــيه جمال وخيم وبراقع، البدو تحضروا، ومنهم ناس مهمين فى الـــشرطة والجـــيش والقضاء، وكنت عادة أستعين بقريبى الدكتور أبـــو بكـــر يوســـف متـــرجم أعمـــال تشيكوف ومراجع أعمال ديستوفسكى، وأقول إنه منا، عمى عصب يعنى .

ولكـــن بعـــدما تعرفت عليهم تجرأت، وبدأت أتحرش بطلبة بنى ســـويف عـــيانا بـــيانا، وفكرت أننى لا أخلو من الميزات، لهجتى مـــثلا، غموضها نفسه ميزة، الناس عادة يقدرونك وربما يخافونك لـــو تكلمت بلغة لا يفهمونها، وبمرور الوقت أسفرت عن هويتى، أحيانا كنت آتى للمعهد بالشنة والعباية، وكنت أشعر بزهو حقيقى حيـــنما نجـــرى حـــوارا باللهجة البدوية على مسمع من الزملاء، وغيـــرت استراتيجة التعامل مع البنات، تخلصت من السهتنة التى أرهقتنـــى أيامـــا وتـــركت وجهى على طبيعته، وكنت - بغرض معاكستهن بالطبع - أرمى عليهن وأحيانا أشتمهن باللهجة البدوية، الطلـــبة حتى من الأرياف كانوا يصفرون ويبسبسون ويا قمر ويا جمـــيل بينما أنا أطلق الشتائم، وهى خصلة قديمة لدى، ووجدت أصـــول لها فى ليبيا حيث أصولنا القريبة والجزيرة العربية حيث أصولنا البعيدة، الواحد هناك حينما تعجبه واحدة فى الشارع ويعن لـــه معاكـــستها ينهرها قائلا " عدى ياقحبة "، وأنا فى ابتدائى كان معـــنا بنت قريبتنا، وكنت أموت فيها، حببتنى المدرسة فى نفسها، وكل يوم كنت أكتب لها على أعمدة النور والجدران رسائل أو قل قذائـــف مهولة، أخجل حتى من كتابتها، ولكنى أحيانا كنت أقع فى مصائب، مرة قلت لواحدة " يا وجه البحة اللى معاودة م السوج "؛ كانت على آخر موضة، ولكنها ردت على بعجرفة أعرفها تماما " يا وجه الكلب المقطوع ذيلا" .

كـــنا معـــا طـــوال الوقت، فى المعهد والسكن، وقفلت على موضـــوع الـــثانوية العامة، سنة أخرى يمكن أن تمر دون طائل،

وبدأت أعيش، وحينما قامت المظاهرة كنت عايش، واشتركت في مسابقة للقصة القصيرة على مستوى المعاهد الفنية، ونلت عشرين جنيها، لا أدرى إن كانت تشجيعا أو اعترافا بحصد أحد المراكز، ولكـــنها جـــاءت فى وقتها، تغدينا واشترينا أربع علب كيلوباترا، وحـــسبنا مـــا يمكن أن أقبضه لو بعت قصصى كلها. ناجى كان أقـــربهم إلـــى، دخلنا سجن بنى سويف العمومى وزرته فى المنيا وزارنـــى فـــى الفـــيوم، وكـــنا نتحـــرك فى المعهد باعتبارنا قوة متماســـكة، الاعتداء أو حتى الاقتراب من واحد يعنى اعتداء على الجمـــيع، وكـــنا طوال الوقت نقتفى أثر البنات، فى البوفيه وأمام أبـــواب المـــدرجات، ونحـــاول لفـــت أنظارهن بالصياح، نزعق ونضحك وإيدك يا جدع على أتفه الأشياء ودائما ولا حتى نظرة.

كـــنا نلتقى ونلف فى المعهد ونشرب الشاى فى البوفيه ونعود للسكن وطوال الوقت نتجنب الإخوة، إذا دعونا للصلاة صلينا وإذا سحلوا أحد ضباط الأمن تملكتنا شماتة جماعية، كانوا نشطاء جدا، حوالى عشرين طالبا يقومون بحملة لتنظيف المعهد، أقاموا الصلاة وحـــضوا علـــى ارتـــداء الحجاب، ومنعوا الطلبة من الوقوف مع الطالبات، ونجحوا أحيانا فى تسيير جماعات تهتف " معهدنا معهد جدعان مش هيرضى بالهوان"، وكانوا عادة يتصادمون مع العميد، رأس الفـــساد كمـــا لقـــبوه، يقفـــون له فى المحاضرات ويتهمونه بالعمالـــة للأمن، ويتدخل الأمن، ويختفى أحدهم أسبوعاً أو اثنين، ويعـــود ويتحـــرك فـــى المعهـــد باعتباره بطلا، أنا شخصيا كنت أعتبرهم أبطالا، واحد يدخل مديرية أمن بنى سويف ويخرج سالما

لابــد أن يكون بطلا، وفى يوم الخميس الموافق الخامس من يناير عــام ١٩٨٧ اقترب منى أحدهم وقال " النهارده هنعمل مظاهرة، الإخوة قبضت عليهم مباحث أمن الدولة.. مستعدين " .

كنا شبه معروفين، أشكالنا وملابسنا وصياحنا باللهجة البدوية حقــق شــيئا مــن الذيــوع، ولكنا فى حالنا، لم ننضم للأسر أو الجماعــات، ولــم نــشغل بالنا باتحاد الطلاب، ولكننا كنا نتابع، مــشاحنات جبهتــين، جــبهة اتحاد طلاب أسر اللوتس والنورس والفسيفساء وما أشبه، وجبهة الإخوة، وكانوا عادة يتصادمون أثناء موسم الرحلات، اتحاد الأسر يطالب برحلات طرية شباب وبنات، والإخــوة يــريدونها ناشــفة، وتسحب المطاوى والجنازير، اتحاد الأســر كــان الــسلطة المدعــومة مــن العميد، والإخوة كانوا المعارضة، ولكنها أقوى معارضة رأيتها فى حياتى، كانوا تقريبا يحكمون المعهد، وحينما يحتدم الأمر على الرحلات يرزعوا الباب على العميد ويموت فى جلده وتخرج الرحلات على الشريعة، فوج للإخوة وفوج للأخوات .

فارع الطول

أبو عنتر صاحب بيت عين شمس أصلا من الصعيد، من قنا تقريبا، سافر إلى السعودية وربط على بطنه عشر سنوات حتى لمّ ثمن البيت، فارع الطول، شخص فى طوله لن تراه كثيرا أثناء حياتك، ويرتدى عادة جلابية على اللحم، ويلف رأسه بعمامة أحيانا تكون ناصعة البياض وأحيانا متسخة، ويعانى من صعوبة فى النطق، يكره الكلام، حينما يتكلم كان يبدو وكأنه يبتلع أو يتقيأ، تفاحة آدم كانت تقع فى ورطة، تصعد وتهبط بسرعة عجيبة ثم يعتمد على الإشارات، يزوم ويرفع يديه عاليا ويهزهما فنفهم أنه غاضب، دائما هو غاضب، وقوفنا فى الشباك وكثرة زوارنا وضحكنا على الفاضية والمليانة يقاومه بإشارات متشنجة، كنا نراه على السلم فى حالة عمل متواصل، يطلع أشياء وينزل غيرها، أجولة وأخشاب وأحيانا حيوانات يضمها على كتفه ويصعد، وجهه للأرض وجلابيته بفعل الانحناء تكنس السلم، فى البداية كنا نحييه، نقول" صباح الخير أو شد حيلك " ولكننا بالخبرة اعتمدنا لغته، نزوم ويزوم، ويواصل كل منا طريقه.

وكان يعوض الكلام بالتصنت على السكان ويولينا عناية خاصة، فى الحقيقة لم يكن يتصنت، التصنت يعنى أن تغافل الناس وتسمع ما يقولون، وهو لم يغافل أحدا، كان فقط يبالغ فى تقدير سلطات أصحاب البيوت، صاحب البيت من حقه أن يعرف ما يدور، ثم إننا غرباء وعزاب ولا يعلم إلا الله ماذا ندبر فى بيته.

أثناء رحلات الصعود والنزول يختار بابا ويستند عليه بكامل جسده ثم يهبط بأذنه حتى تلتصق بخرم المفتاح، أحيانا يكون منحنيا تحت شىء ثقيل، وإذا تصادف وفتح الساكن الباب يرمقه بنظرة استنكار ويواصل رحلته بكل بساطة، مرات عديدة كاد يسقط فى غرفتنا، نفتح الباب ونجده منكبا على خرم المفتاح.

مرة كان يحمل جوالا، زام وزمنا واندار لكى يواصل الصعود، كنت أنا والدكتور، وكان الجوال ثقيلا، حوالى مئة كيلو، كنا نحس بانتفاضه تحته ولكنه لم يطلب المساعدة، كان يحمى رقبته بطرف الجلابية واهتز قليلا، وتحسس درجة السلم القريبة بقدمه اليمنى ثم باليسرى وواصل الصعود بثبات، فى ذلك الوقت كنا فى شبه عداء، نزوم بحدة ويزوم بحدة مضاعفة، كان يتحين الفرصة لطردنا من البيت (هكذا فهمنا من نبرة الزوم)، وكنا فى حاجة إلى بادرة سلام، هو فى النهاية صاحب البيت ويستطيع اقتحام الغرفة فى أى وقت، نظرنا إلى بعضنا فى شبه تواطؤ على استغلال الفرصة، يداه قابضتان بقوة على طرفى الجوال وثمة إحساس بالغيظ أو الخجل كان يربك خطواته، جذبت الدكتور ولحقناه، ورفعنا الجوال من على مؤخرته، لم يعترض أو يوافق وواصل

المسيرة وكأن شيئا لم يحدث، وفجأة.. سقط سرواله، أبيض وفضفاض ومن السعودية، اشتراه أيام الربط على البطن، يبدو أن أحدنا داس عليه أو أن خيطه انفك، كان ملتفا حول مؤخرته، وفجأة اتلم بين قدميه، مؤخرته ربما بفعل الخجل كانت مزمومة، كانت مثل فم فقد أسنانه، لم أتوقع أن تكون لديه مؤخرة بهذه الطرافة، لم تكن جلدا على عظم ولكن جلد على عضلتين يابستين.

الدكتور حاول أن يستره، زام ورفع السروال مرات، ولكن أبوعنتر واصل الصعود بإصرار حتى وصلنا السطوح. زوجته كانت هناك، أول مرة نراها، بدت وكأنها قادمة حالا من ميتم صعيدى، طرحة سوداء وجلابية سوداء ودقة عريضة على الذقن وشناف مخروطى لا تعرف إن كان ذهبا أو نحاساً، السطح كان مزدحما بالخشب والحديد وأشياء بعضها بال وبعضها متماسك ولكنها مرتبة حسب الصنف، اتجه بنا أو فلنقل جرنا إلى ركن الأجولة، كان أشبه بجرار قوى وكنا أشبه بمقطورة، نصف الجوال فوق رقبته ونصفه بين أيدينا، وفجأة دون حتى أن يزوم تخلى عن دوره، كدنا نقع، ترنحنا واستندنا على الحائط وانتظرنا أن يختفى ويستر نفسه ولكنه وقف عاريا، كان عضوه أشبه بقرد منكمش وسط غابة، وقبل أن نركن الجوال زام ثم برطم، ونطقت زوجته، قالت "إننا أوساخ".

أبو طاحون

دائما أفكر فى عزبتنا، من أول يوم فى شبرا تحلّ باعتبارها وطنى الأم، المكان الوحيد الذى أتحرك فيه دون خوف باعتبارى مواطن لى حقوق وعلى واجبات، أضعها أمامى وأقلب فى ذكرياتها باعتبارها تواريخ لوطن جريح..لا أدرى لماذا يرتبط الوطن لدى بالجراح، الأوطان تبدو أكثر مهابة واحتراما حينما تكون مثخنة بالجراح، وعزبتنا جريحة، فقيرة وصغيرة، وتقع بعيدا عن الطريق العمومى والسوق والماء العذب، وتحيطها الصحراء من كل جانب، وجيرانها يتندرون عليها بقصة تراثية مفادها أن سيدنا موسى كلم ربه، قال: يا رب هل هناك أفقر من "الأبعج". فردّ صوت إلهى حزين: تأدب يا موسى.. أبو طاحون أفقر وأفقر.

" الأبعج" نجع يتبعنا إداريا وقبليا، و"أبو طاحون" هى عزبتنا، واسمها الرسمى "دانيال" نسبة لسيدى دانيال، وحينما قال الشاعر "إحنا وطننا منهاب ما هو ساهل" كان يقصدها هى، وأهلها من العرب والفلاحين، ومنتجاتها المحاصيل الزراعية والحيوانية، وأرضها الزراعية شحيحة، شرائح من الخضرة تمتد كالأفاعى

وسط صحراء، منحها محمد على باشا لجدودنا أيام التوطين، الباشا اكتشف مبكرا أنه لا قيامة لدولة حديثة فى وجود المماليك والبدو، المماليك ذبّحهم والبدو وطّنهم.. وذبّحهم أيضا، أو قل وطّن من يريد التوطين وذبّح من يريد الذبح ولكن هذا موضوع شرحه يطول خلينا فى أبو طاحون.

البدو يملكون الأرض والفلاحون يزرعونها، ليست مساحات يعتد بها، ولكن البدو لا يزرعون، والسلطة فى عزبتنا محسومة، البدو حكام والفلاحون محكومون، والأمور مستقرة. ورغم أنها عزبة صغيرة، فقيرة، وبعيدة عن المواقع الاستراتيجية، إلا أن عموديتها تهيمن على تسع عزب، أقلهم من حيث المساحة والسكان ومصادر الرزق أكبر من عزبتنا. وكلنا، بدوا وفلاحين، نتحرك بين جيراننا باعتبارنا عمد، أصحاب سيادة، وطبعا - كما هو قدر الحكام - نتعرض لسخافات، أبناء العزب أو الأوطان المجاورة يؤكدون قصة سيدنا موسى بوقائع حديثة، يقولون إننا باردون، نتحدث ببطء ولا حرارة فينا، وأننا أكولون، كسالى، وبتوع كلام، حياتنا نفسها كلام فى كلام.

أهل عزبتنا، بدو وفلاحون، فى الغالب، لا يهبون للدفاع عن وطنهم، نمتص ملاسنات الجيران بسكينة أقرب للتشجيع، صحيح أن بعضنا كان يغضب ويشعلها معركة، ولكن أغلبنا كان يبدو مقتنعا، أنا شخصيا، كنت لا أجد ما يستحق الدفاع، اسمها نفسه مريب، ضريح بائس، شاهد حجرى مدكوك وسط سور متداع ولا تعرف إن كان صاحبه " سيدى دانيال " مسيحيا أو مسلما، كنت

أفكـــر فى الأمر وأجدها، فعلا مكان يليق بالفرار، هى فى أفضل حالاتها أقرب لاستراحة، لنقطة يعبرها الناس، أنا تقريبا مقتنع أن جـــدودى - لـــدى نزولهم فيها - كان فى نيتهم الاسترخاء وليس الإقامة الدائمة.

ولكنـــى كنت أتحمس وتتملكنى المشاعر الوطنية وأحيانا أقود المظاهـــرات والمـــشاحنات حيـــنما يلعب فريق عزبتنا مع فرق الجيـــران، كـــنت أدعو الله مخلصا أن نغلبهم، وكنت أشعر بأبلغ معانـــى الفخر والاعتزاز حينما نهزمهم فى عقر دارهم. كما كنت أبـــادر بالانـــضمام إلـــى الميليشيات فى حال التعرض لاعتداءات خارجـــية.. نعـــم قضيت ليال طويلة فى إعداد الكمائن والأربطة وتحـــيُّن الفرصـــة لـــسحق الأعـــداء. كـــنا حوالى عشرة شباب، متحمـــسون ومـــستعدون حتـــى للموت فى سبيل معان مثل العزة والكرامة ودم القبيلة، وأكثر ما كان يهزمنا ويثبط من عزيمتنا هم هؤلاء الشباب الذين يتحينون الفرصة لخطف بناتنا، قانون عزبتنا يقـــول إن الفلاحـــين لا يتـــزوجون بـــنات البدو، ونحن كنا ندافع بحماســـة عن القانون، نتربص، وننصب الكمائن، ولكن أعداءنا - مـــن هـــذا النوع بالذات - كانوا لا يتصادمون معنا، لا يقفون لنا وجهـــا لـــوجه، يستديرون على تربيطاتنا وكمائننا، وفى الصباح نسمع الخبر: عمنا الفلانى عقد قران ابنته على فلاح.

يـــبدو أننى تهت كما العادة، كان من المفترض أن أتكلم عن الـــوطن وهـــى شىء صغير وربما تافه بالنسبة لوطن، أى وطن، ولكـــنها المكـــان الوحـــيد الذى أتحرك فيه باعتبارى مواطن، لى

حقوق وعلى واجبات، وحينما أسافر للعزبة، حتى الآن، أحاول أن أفهمهـــم مدى النجاح الذى أنعم به، وأوحى لهم بأننى حققت نوعا مـــن السلطة فى المدينة، فى عقر دار الأعداء، أعيش بينهم دون حاجـــة لأى سلطة، ولكن لم أجد أليق منهم بمعرفة مدى سلطاتى، أســـتقبلهم فـــى مندرتنا وأزحم المكان بالصحف والمجلات، وأنقل الكـــلام إلـــى موضـــوعات سياســـية عامـــة لكى أصل بهم إلى موضوعى، الكتابة والنشر والأملة التى أنعم بها فى مصر، ومرة قلت لأحدهم إنى "أديب"، كنا ندخن، وشعرت أنه قريب منى وقلت "علـــى فكرة أنا لى أربع كتب، اتنين قصص وواحد رواية وواحد شـــوارع "، أنـــا وهم بالطبع دائما فى حاجة إلى الحماية ليس من الأعـــداء القريبين ولكن من الأعداء البعيدين، الشرطة والحكومة، وأنا الآن بصدد إفهامهم أن غربتى فى القاهرة لم تذهب هباء، وأن "الأديب" حماية لا بأس بها، يمكنه أن يهاجم أو حتى يتطاول على ضابط شرطة ويمكنه أن يدفع أو حتى يرزع باب أى مسئول.

جـــئت إلـــى القاهـــرة فـــى بداية التسعينات واستقررت فى منتـــصفها، عملت فترة فى الفاعل، وكنت وزملائى شبه منعزلين، نـــسير فى شوارع القاهرة باعتبارنا أبناء وطن آخر، بعيد، نتحين الفرصـــة للرجوع إليه، حتى الآن حينما أنوى السفر للعزبة أقول إننى" مروح"، عائد إلى وطنى.

بكر

المعلـــم بكر من البلد، اسمه بالكامل بكر قرنى بيومى، وبدأ الـــسفر لمـــصر مـــن بدرى، وهو قصير ومدكوك ويرتدى دائما جلابية إسكندرانى بلياقة وعمامة ناصعة البياض، وفى الشتا الشال الكـــشمير والعـــباية، وفى الحالتين الطاقية البيضاء المطوية حت المخدة والحكاوى، الرغى المتواصل والقصص الأسطورية حول بطـــولاته وبطـــولات الآخـــرين، جـــاء إلى مصر نفرا عاديا فى الـــستينات، ولكـــنه اشتغل واجتهد حتى تعلم صنعة البياض وعمل دولاب مـــشهور قـــوته عشرين مبيض محارة، ولا يشتغل إلا فى الأحـــياء الـــراقية، وكـــان يـــشتغل من الباطن مع مكتب هندسى بالمهندســـين، وكـــان يكسب كثيرا، وسنحت له فرص لو توفرت لغيـــره لـــصار مـــن الأثـــرياء، ومازال يتحسر حتى اليوم على الأراضى التى عرضت عليه بجنيهات وتباع اليوم بملايين، ورغم أن شـــغله كان فى القاهرة لم يسكن فيها أبدا، كان يقضى الأسبوع أو الاثنين فى عمارات الشغل ويعود لأولاده فى العزبة، وإن سكن ففـــى أوضتين عزابى فى أى مكان، وكان لا يفضل أنفار العزبة، وأكثر ما كان يضايقه منهم أنهم كانوا يعاملونه وكأنهم فى العزبة

ولا يعطونه حق قدره كمقاول وريس وصاحب شغل، وأنا الوحيد الذى كنت أشتغل معه بانتظام، وربطتنا علاقة أشبه بعلاقة الأب بابنه، وكنا نسافر أسبوعيا للعزبة ونعود معا، وسكنت معه فى أوضتين فى كفر الجبل، أيامها كان يشتغل فى مشروع المريوطية، عشر عمارات تطل على شارع فيصل الآن، وكنا نشتغل طوال النهار ونبيت فيهم، وحينما نطبق أسبوعين كان يشترى اتنين كيلو لحمة من جزار معروف بالدقى وأطبخهم على على أرز أو مكرونة ونقضى الخميس والجمعة مع السيرة الهلالية، كان يموت فى السيرة الهلالية، ويتزاحم هو والتسجيل على حكيها لى طوال الليل.

وظللت مدة أشغّل له حوالى عشرين مبيض بعضهم صاروا أصدقائى خصوصا أكبرهم أو الكماندة ابتاعهم خلف، كان طويلا نحيفا وصحته على قده ولكنه كان فنانا، متخصص فى الفرم والأشكال والمشغولات الجميلة، وكنا أكثر من أصدقاء، وكنا نقود الدولاب ونشرف على المبيضين ونقبضهم فى غياب المعلم بكر، وكان أحيانا يأخذنى معه فى المرمات الخارجية، المرمات الطرية فى القصور والفيلات التى يبدع فيها فنونه، وأثناء شغلى معه أصابه داء غريب فى ظهره، فى السلسلة بالضبط، وأنا انفعلت بالموضوع وكتبت عنه قصة بائسة بعنوان " قيثارة خَلَف البنّاء" ولكن نظرا لجهلى بعلامات التشكيل نشرت " قيثارةٌ خلْفَ البناء" وخلف نفسه تلقاها باعبارها شكوى، مناشدة لكبار المسئولين لعلاجه على نفقة الدولة وكان يسألنى كل يوم تقريبا " هه

مردوش، محدوش استجاب ؟ "، والمعلم بكر نفسه كتبت عنه قصة ولكن فلسفية قليلا تناسب مقامه الرفيع، حاولت فيها أن أجعله أبى، أنا لم أجرب موضوع الأبوة هذا، وحتى اليوم لا أعرف النبرة أو الصياغة المناسبة لكلمة أبى، وطالما جربت مع نفسى " بابا وبابى ودادى " ولكنى لم استسغها جميعا، وظللت فترة أبحث عن أب حقيقى، أب أخجل منه وأخشاه وأعمل له ألف حساب، وجربت هذا الموضوع مع كل الشخصيات العظيمة التى عرفتها، أو قل الشخصيات التى شملتنى بالرعاية والحب ومنهم طبعا المعلم بكر، كنت أعامله فى الشغل والسكن وحتى فى البلد باعتباره أبى، ولكنه للأسف لم يصدقنى أبدا، أنا شخصيا لم أصدق نفسى وكنت أشعر بالافتعال والكذب والنفاق، والحقيقه أن هذا الموضوع لم يجر إلا ريبة المبيضين وشكهم فى باعتبارى " ... المعلم " أى عينه المتجسسة على كل أفعالهم .

كنت فى التاسعة عشرة من عمرى وكنت أدرس فى المعهد، وكانت مهمتى تجهيز المونة والماء لعشرين مبيض متفرقين فى عمارة عشرة أدوار، وكنت أصحو فى الخامسة وعلى الثامنة موعد وصول المبيضين أكون جهزت مطمر مونة لكل أربعة منهم وبرميل ماء فى كل دور، وكان الشغل منتظما ومضمونا، دولاب المعلم بكر دولاب رسمى له راس ورجلين مش زى عك شبرا، تشتغل الأسبوع كاملا وتقبض يوم الخميس، وأنا الذى كنت أقبض الصنايعية والأنفار، نفر طول الأسبوع ومحاسب يوم الخميس، وكنت أعود للبلد كل مدة، أسبوعين يعنى، بمبلغ

محتــرم، وكنت أنظف نفسى وأدعك رقبتى ويدى بالزيت والجاز حتــى أمحــو آثار الجير والأسمنت وأرتدى جلابية نظيفة مكوية وأقــضى الإجــازة فى العزبة باعتبارى بيه محترم، مثقف القرية بامتــياز، أصحو متأخرا وأضرب الفوطة على كتفى وأتوجه إلى الترعة رافعا فرشة الأسنان والمعجون إياهم، وطوال النهار أجلس على مسطبتنا أقلب فى كتب لم أركز مع أى منها .

ولكن عيب الشغل فى دولاب المعلم بكر أنه شغل شغل، شغل فى الليل والنهار، كنت أشتغل فى العمارات وأنام فيها مع عدد من الزملاء على سرير متهالك من طفش الأخشاب وشكاير الأسمنت، ومــا كرّهنـــى فيه أكثر أن المرة الوحيدة التى خرجت فيها قبض علـــى، كنت أرتدى جلابية وكانت ذقنى نابتة وجلست مع زميل علـــى قهوة فى آخر شارع فيصل، وجاء ضابط فى بوكس ولمنا تحـــرى مع جمهور من الشارع والقهوة، وأخذنا على قسم الهرم، ومـــا صعب الأمر على وجعلنى أتصوره أهوالا أننى كنت خارج مـــنذ شهور قليلة من حبس المظاهرة، وكنت مرعوبا أن يكتشفوا الموضوع وأضيع فى ستين داهية، وكان الحجز مزدحما، وعندما دخلـــنا قال أحدهم ويبدو أنه الريس أو الكوماندة " أقف عنك انت وهـــو وطلـــع اللى معاك " فقلت له بحسم "إحنا غلابة بنشتغل فى الفاعـــل" وكـــان اختـــيارا موفقا فقد قال "اقعدوا، اتلقحوا عندكم" وســـكت، وصـــحفت لى مكانا وجاهدت حتى سندت رأسى على ذراعى ونمت، وصحيت على الأسئلة والتحقيق، وكل الذين دخلوا قبلى سمعت صراخهم ونحيبهم، ومت فى جلدى، وتخيلت الصفع

والركل واللسع والبعبصة وكل الأهوال المعروفة، ودعوت الله من كـــل قلبـــى، وقلت له يا أحكم الحاكمين انقذنى اليوم فقط وافعل بباقـــى حياتى ما تشاء، وتلوت كل الأدعية والأحاديث التى تحمى الإنسان من الضرر والشر والهلاك، ويبدو أننى اجتهدت فعلا، فقد مـــررت مـــن أمـــام الضابط دون أن يرانى، فأغشيناهم فهم لا يبـــصرون، وانطلقت فى الشارع، ومن يومها تطيرت من الشغل فـــى دولاب المعلم بكر، تطيرت منه وكرهت خنقته، شبرا أحسن كثيـــرا، شـــبرا حـــياة، كنا عادة نشتغل وسط الناس، وسط الأسر المستقرة، شبرا شغل وفسحة.

الفيوم

عرفت الفيوم مؤخرا، أنا أصلا فيومى ومن أبو طاحون التى تبعد عنها حوالى أربعين كيلو مترا ناحية الجنوب، وكنت بالطبع أمر عليها لمواصلة السفر للقاهرة وغيرها، وفى إعدادى وثانوى كنت أزورها لأكل سندوتشات الطعمية فى مطعم كنكوت بشارع المحمدية والكشرى فى مطعم سكر بشارع مصطفى باشا ودخول سينما الفيوم الشتوى بجوار قصر الثقافة القديم وسينما عبدالحميد الصيفى على بحر يوسف، وهما "السينمتان" الوحيدتان فى الفيوم، ولو تيسر لك رؤيتهما والمطعمين ستعرف أحوالنا. مطعم كنكوت كان ممراً فى منتهى الضيق، عرضه نصف متر وطوله أربعة أمتار وأغلق منذ سنوات وفتح مكانه محل أحذية، ولكن سندوتشاته أشهى سندوتشات أكلتها فى حياتى، وسكر مازال باقيا، وزيارته فى حد ذاتها كانت مدعاة للفخر على ذوينا وجيراننا، ولا أعرف بالضبط ما كان يجذبنا له، ضيق وقذر ومكتوم وأشبه بمطار للذباب، وبالمناسبة ذباب الفيوم يشتهر بالشجاعة والتلامة والتسلط والكبر، وسينما عبدالحميد كانت مغطاة بالخيش، وأغلقت بعدما انهارت فوق رؤوس المشاهدين وأصيب كثيرون ونقلوا

للمستشفى، وزيارتهما هى وسينما الفيوم كانت نزهة لشباب عزبتنا والعـزب المجـاورة، ولى ابن عم داوم على مشاهدة فيلم " خلى بالـك مـن زوزو " لسعاد حسنى مرتين يوميا على مدى خمسة عـشر يـوما فـى سينما عبدالحميد وكان ضمن المصابين حينما انهارت .

ولكـن الفيوم كانت مجرد محطة، إما أن توصلنا إلى فجاج الأرض الواقعة شمالها وإما أن تعيدنا للعزب الواقعة جنوبها، وكنا نغادرها ونعود إليها فى جماعات، فرق، سواء كنا طلبة أو عمال تراحيل، ونركب من محطة القطار بميدان حمد باشا الباسل، وكان صـوت عجلات القطار بالنسبة لنا كلاما مفهوما، واضحا تماما، حينما ينطلق القطار من الفيوم إلى غيرها من بلاد الله يعنى" مشّ بـدودو .. مـشّ بدودو " وحينما يعود إليها يعنى " كحك بسكر.. كحك بسكر " .

وأول مـرة أزور الفـيوم كنت فى ابتدائى، أيامها، سبعينات القـرن الماضى وحتى ثمانيناته، كانت بقايا مدينة " شدت " أصل الفـيوم مازالت باقية فى منطقة كيمان فارس، وكانت منطقة مليئة بالمـستنقعات ونباتات الحلفا والعجول والبردى، وكانت التماثيل والمـسلات ملقاة وسط الوحل، وبعد سنوات اختفت وأقيمت فوقها مـساكن كيمان فارس الحالية. وأنا زرت الفيوم فى صحبة أمى، تحت إلحاح مدعوم ببكاء ورفس فى الأرض أخذتنى معها للشارع المعـرش، وهـو عبارة عن سوق شعبى مسقوف من أوله لآخره ومتخـصص فـى بيع الأقمشة والمنسوجات والأحذية الرخيصة،

ويعتبر " عتبة " الفيوم ومازال يمارس نشاطه حتى اليوم، وتتفرع منه حارات ضيقة مزدحمة بورش صناعة الأثاث، ومعظم إن لم نقل كل عفش بيوت قرى الفيوم مستورد منها، وللأسف لا أذكر من هذه الزيارة إلا حادث البصقة. أثناء سيرى بالقرب من الشارع " المعرش " عنّ لى رفع رأسى والتطلع للعمارات، وفى نفس الوقت عنّ لأحد السكان أن يبصق، وسقطت قذيفته فى عينى بالضبط وكانت ساخنة ولزجة وأكبر من أى بصقة بصقتها أو رأيتها فى حياتى، وثانى مرة كنت أيضا فى ابتدائى وكنا نشترى جهاز أو " دبش " أختى الكبرى، وأثناء تقافزى فرحا وراء أمى فى الشارع داهمنى طفل فيومى فى سنى، وفى لمح البصر غرس دبوسا فى ظهرى وفص ملح وداب، وصرخت بأعلى صوتى، وأمى التاعت، ظننت أن ثعبانا لدغنى .

الفيوم ارتبطت عندها بلدغ الثعابين، زارتها أول مرة مع أبى فى الخمسينات، فى ذلك الوقت كانت الفيوم عبارة عن سواقى ومستشفى عام وقصرين أو ثلاثة وعدد من المصالح الحكومية والعمارات على بحر يوسف الذى كان يمر وسطها (ردم مؤخرا)، ولم يكن عامرا بها إلا الأحياء الفقيرة مثل الشيخ حسن والشيخة شفا، ومعظم بيوتها كانت مبنية بالطوب اللبن، وأبى وأمى كانا مازالا عرسانا ولم يسمعا عن شيء اسمه الكهربه وجاءا للمستشفى العام، الكهرباء دخلت الفيوم عام ١٩٢٦ واستغرقت حوالى نصف قرن حتى وصلت نجوعنا، وفى المستشفى تأخر الطبيب ومن باب الزهق خطر لأمى أن تتمطع، ويبدو أنها بالغت،

فـــردت ذراعـــيها علـــى طولهما، ولامست يدها سلكاً عرياناً فى " فيشة " قريبة، فصرخت بأعلى صوتها " حنش يا بوحامد.. حنش يـــا بوحامد " وسألها بوحامد ملهوفا " وين ..وين " فأشارت ناحية الفيشة " فى الجحر هضا " وراحت فى رعشة طويلة كأى ملدوغ، وبوحامد سحب نبوته للانتقام وهم بتهشيم جحر الحنش فوق رأسه لولا أن أحد المارة أفهمه أنها كهرباء وليس حنشا. وفى نفس هذه الزيارة رأت أمى التلفزيون لأول مرة، وعادت للنجوع بمعجزتين، وحكـــت لجيرانها المنبهرين عن المارد الكهربائى الذى يلدغ مثل الثعـــبان والصندوق الأسود الذى يعيش به ناس حقيقيون يقتربون من البنى آدم ويكلمونه .

بعد سنوات، انتقل أبى للعمل بالفيوم حارسا وبالطبع أخذ أمى وأقاما فى أوضة بالقرب من الشارع المعرش، أيامها كنت فى علم الغيب، وكانت علاقة سكان الفيوم المدينة بالبدو المنتشرين حولها مازالـــت متوتـــرة، الفيوميون يعتبرون البدو قطاع طرق أجلاف والـــبدو لا يـــرون فـــيهم إلا فلاحين لا يليق بالبدوى الأصيل أن يناســـبهم أو حتـــى يخالطهم، البدو حتى أربعينيات القرن الماضى كانـــوا يعيـــشون على السطو والسرقة وكانوا ينهبون قرى الفيوم ومـــدنها بـــشكل منـــتظم، ومـــا شاركوا فى ثورة ١٩١٩ ودخلوا ســـجونها إلا للانتقام لابن عمهم حمد باشا الباسل ومواصلة النهب والـــسرقة على أسس سليمة أو قل نضالية بعد أن نجحت الحكومة فـــى وقفهم وأوقعت فيهم مذبحتين متتاليتين فى قرى مركز أطسا جنوب الفيوم.

وبالمناسبة ثورة ١٩ فى الفيوم تختلف نهائيا عن ثورة ١٩ فى القاهرة، نجيب محفوظ وكل مخرجى ثلاثيته الشهيرة وصفوا أفندية بالبدل الكاملة يرفعون الهلال والصليب ويهتفون فى شوارع القاهرة "نموت نموت وتحيا مصر" وبالفعل يحقق الإنجليز أمانيهم برصاص بنادق مصوبة من شرفات ثكنات قصر النيل، بينما ثورة الفيوم لم يكن هناك هتافات وإنما همهمة، نهب متواصل للسكك الحديدية والمصالح الحكومية وخطوط التليفونات وهجموا على مراكز الشرطة ونهبوها عن آخرها، ورغم أن عددا كبيرا منهم سجن بل قتل برصاص الإنجليز، إلا أن محاكم الثورة لم تحقق معهم باعتبارهم ثوريين أو مناضلين ضحوا بدمائهم من أجل الوطن ولكن باعتبارهم حرامية ونشالين وقطاع طرق، ولكن هذا موضوع آخر.

المهم أن علاقتنا بأهل الفيوم كانت متوترة حتى السبعينات والثمانينات وربما مازالت متوترة لليوم، وكانت تدور معارك طاحنة، وبالطبع الفيومية المتعلمين المتحضرين كانوا لا يصبرون على منازلة ناس بدائيين يعيشون فى الخلاء ولا يتقنون شيئا إلا الضرب بالنبوت والنار، ومنذ الأربعينات بدأ فقراء البدو ينزلون الفيوم للشغل فى الأعمال التى لا يقبل عليها أهالى الفيوم المتحضرين مثل الفاعل وحفر مرافق الصرف الصحى والكهرباء وحراسة المصالح والمنشآت الخاصة والعامة.

وأبى اشتغل حارسا على مدرسة خاصة فى قلب الفيوم، ونظرا لجهله بأحوال الفيوم وأسرارها، سكن فى بيت واحدة تعمل

بالبغاء. البغاء الرسمى ألغى من مصر فى الأربعينات، ولكنه ظل ساريا فى الفيوم حتى الستينات. وكان بإمكان أبى أن يكتّم على الموضوع ويسحب أمي ويسكنان فى حى آخر، ولكنه جرى على النجع وجاء بكتيبة بالنبابيت والبنادق ودمروا البيت وجابوا عاليه واطيه وقبض عليه وسجن بمركز الفيوم أياما، وخرج من السجن على سكن جديد بشارع مصطفى باشا فى وسط الفيوم.

وذات صباح، أثناء ممارسته لمهام عمله أمام المدرسة التقى وجها لوجه بالمطربة صباح أشهر شخصية يراها فى حياته، كانت فى زيارة للفيوم لإحياء حفل غنائى فى " الأوبرج" بمناسبة العيد القومى للفيوم، ووقفت أمامه بسيارة فارهة، وسألته عن مكان "الأوبرج" فأشار لها بعدم اهتمام إلى الطريق الموصل للأوبرج، ولكن يبدو أن صباح أعجبت بمنظره، بهرت بالنموذج المنقرض، الجرد والشنّة واللهجة البدوية، أو أنها استكثرت عليه تجاهلها هكذا، فنزلت من السيارة وسلمت عليه وقالت " أنا صباح مش عارفنى" على أمل أن يتحرك ويفعل شيئا، وحينما ظل على ثباته عرضت عليه أن يركب معها ويوصلها "للأوبرج" ويأخذ ما يريد حتى لو كان التوسط لدى المحافظ لنقله لشغلانة أفضل من وقفته هكذا، ولكنه رفض بكل إباء، ومن يومها اشتهر فى "أبو طاحون" وضواحيها بأنه الرجل الذى عرضت عليه صباح نفسها فأبى.

فى الثمانينات توطدت علاقتى بالفيوم وسكنت فترة فى شقة صديق بالمساكن الشعبية بحى قحافة، وهو حى الطبقة المتوسطة فى الفيوم، وبه المدرسة الفنية التى طالما تجمهرت حولها مع

الشباب لمعاكسة البنات، وانضممت لنادى الأدب فى قصر الثقافة القديم الذى كان عبارة عن شقتين فى بيت ايل للسقوط، وسمعت روايات أو قل معجزات ربانية عن الشيخ عمر عبد الرحمن الذى كان يخطب فى الجامع رغم أنف الأمن ويخرج ويسير فى شوارع الفيوم وسط مريديه ولا يستطيع أمن الفيوم القبض عليه بسبب تجمهر الناس حوله، وبسبب أشباهه من العميان الذين كانوا يرتدون نفس زيه، وفى كل مرة كان الأمن يقبض على واحد على اعتبار أنه الشيخ الضرير وفى كل مرة يكتشف أنه شبيهه وأن الشيخ الداهية هرب إلى أسيوط أو المنيا أو أى بلد، وتعرفت على بيوت الفيومية، الأصلاء منهم والوافدين، وهم فى الغالب غلابة مساكين، وكم كان المؤرخ عثمان النابلسى صاحب كتاب " الفيوم وبلاده" صادقا ودقيقا حينما وصفهم بأنهم خاملون " لا يتحركون إلا بمحرك ولا يتمتعون بأى مكرمة ولا مروءة ولا نخوة ولا شجاعة ولا جود ".

أوضة عين شمس

الأوضـــة، أوضـــة عـــين شـــمس، فى الدور الثالث، وحيدة ومتحـــررة مـــن هيمنة أى شقة، الخطوة الأخيرة على السلم تعنى أنـــك دخلتها، إنك تقف أمام كتبى ووابور الجاز والبطاطين، جابها لـــنا دانيال، الحقيقة جابها لنفسه، أوضته تحتها، ومن حق الساكن فيها أن يشاركه والأدق يشارك زوجته فى الحمام، وبالطبع لم يكن هـــناك أأمـــن منا نحن جيرانه وبلدياته، إيجارها عشرين جنيه فى الشهر ومقدمها ألف، أجرتها أنا والدكتور ونفرين م البلد .

عرضـــها بالضبط أربع أمتار، ونصيب كل واحد لو تجاوزنا صفوف كتبى حوالى متر إلا ربع، تقل لو داهمنا وفد من العزبة، وتـــزيد لـــو عاد أحدنا للعزبة أو فكرت فى طريقة أخرى لعرض كتبـــى، حوالـــى خمسمائة بين مجلة وكتاب، وكلمة عرض دقيقة لأننى لم أكن أرصهم، كنت أعرضهم بفخر.

مـــتابعة أحوال الجيران جعلت الشباك مطمعا حتى للضيوف، عـــرض الـــشارع حوالى مترين، والمسألة لم تتوقف على الأداء الجنـــسى للجيران، هناك ما هو أهم، هناك "بلكونتين"، واحدة لبنت

المبــيض الفلسطينى، والأخرى لحنان وعبير، كلنا بدون استثناء حاولنا مع حنان وعبير وابنة المبيض.

الحصيرة ملك للجميع، كانت أولى مقتنياتنا المنزلية فى عين شمس، خطوط بيضاء على أرضية زرقاء مفروشة تحت الشباك مباشرة، كتبى بالطبع خارج البيعة، الجميع سلم بأنها شىء يعتد به أمام الضيوف. وابور الجاز والجركن وصفيحة الجاز متناثرين دون ترتيب أو حسب موقع آخر من يستعملهم، الطشت بالذات كان لا يستقر فى مكان معين، كان يؤدى مهمة مزدوجة، الغسيل فى العلن وراحة الدكتور فى السر. يجب توضيح المسألة حتى لا نظلم الدكتور، هذه المسألة كانت تزعجنا جميعا، فى العزبة الخلا واسع ويمكنك أن تقضيها فى أى مكان، لا شىء سوى أن ترفع جلابيتك وتفعلها، أحيانا كنت أقضى الليل بين الحمام والأوضة، كانت فى الثالث والحمام فى بير السلم، وكنت بمجرد أن أشد البطانية يتسلط على الإحساس بأنى مزنوق، فأنزل وأصعد وهكذا، والدكتور لأنه أكثرنا تلاؤما مع الظروف حل المشكلة، فى البداية كان يقضى الليل بين فرشته والحمام، وكان الطشت يتراقص أمام عينيه كوسيلة سهلة لنوم عميق، وفى النهاية فعلها وأخذ فى كل ليلة يجرب طريقة جديدة لكتم شلالاته، يضع الطشت بين قدميه على حافة الحصير وينتظر قليلا ثم يترك نفسه، قطرات قليلة كانت تزوغ منه وتسقط على أصابعنا الشاردة من تحت الغطاء، بعضهم، الضيوف بالذات، كان ينتفض، وقبل الفجر يكون قد طهر الطشت، دعكه ثلاث مرات حسب الشريعة، ولكن إصرار الدكتور

أحبطهم، اضطرهم أن يضموا خرير البول وطبعا رائحته إلى قائمة الأشياء التى يضطر الواحد إلى تحملها لو تغرب .

كنا بالطبع قادرين على زيادة أثاث الأوضة بسرير وكراسى أو حتى مكتب لى، يومياتنا من المعلم مطر وغيره كانت كفيلة بمثل هذه الأعياء، ولكنها لم تكن سكنا دائما، ولكن ساحة انتظار، محطة إما أن توصلنا إلى الحياة المأمولة فى القاهرة وإما أن تعيدنا للعزبة.

وفيها وفى بيت أبو عنتر وفى الشارع وفى عين شمس بشكل عام، كنا نخفى مسألة عملنا فى المعمار، كنا نخرج فى الصباح ونعود فى المساء بملابس نظيفة ومكوية وشعور معتنى بها، فيما يخص الملابس كنا أنظف شباب ليس فى بيت أبو عنتر فقط وإنما فى المنطقة كلها، وكنا نستيقظ فى السادسة صباحا، وننزل على الحمام واحدا واحدا، وننطلق لقهوة سالم فى شبرا حتى نلحق المعلمين قبل الثامنة .

الدولاب

دولاب المعلـــم مطـــر كان يعتمد على المباغتة والخطف، لا أذكـــر أننـــى عملت معه فى بيت من بابه، أى قطعة أرض خالية حفـــر فـــيها القواعد وأقام أعمدة البيت، كنا نعمل دائما فى بيوت مهـــددة بالـــسقوط، وإجـــازة موظفى الوحدات المحلية كانت أياما طـــويلة، يوم الجمعة بالذات كان أجره مضاعف، يومية وسهرة، ننحـــى الـــشمع الأحمر بلطف يناسب مكانته الرسمية ونعمل فى البـــيوت حتـــى الـــصباح، ولكـــن كنا أحيانا نعمل فى بيوت آهلة بالـــسكان، بـــيوت سليمة ولكن أصحابها يقلقون على سلامتها أو يقـــررون تـــزيينها، والعصر الذهبى بالنسبة لنا كان فى مشروع مـــساكن الـــشيخ رمـــضان، كـــنا نعمل وسط الأسر تقريبا، كان مشروعا توسعيا، مساكن الشيخ رمضان محاطة بشرائح ضيقة من الحدائق، والسكان قرروا فيما يشبه الإجماع الشعبى توسيع شققهم علـــى حـــسابها، نظـــروا فى الأمر بروية ثم اكتشفوا عدم أهمية الحدائـــق، كـــنا نحفـــر قاعدتين تحت كل بلوك ونصعد بعمودين كافيـــين لإضافة حوالى متر ونصف إلى مساحة الشقة، واشتغلت فـــى هذا المشروع بكل همة ونشاط، وكنت آتى مباشرة من عين

شمس على البلوكات دون أن أمر كما العادة على قهوة سالم، وكنا نتغدى في بيوت السكان، المعلم أثناء إجراء الصفقة اتفق معهم على مسألة غدائنا يوميا، أحيانا كان يفعل مثل هذه الواجبات، يقول إننا متغربين وغلابة وأن اللقمة حلال فينا، وكانت هناك ألوان من الطبيخ والروائح، وأحيانا بنات جميلات يقدمن لنا الشاى ويتباسطن معنا.

اشتغلت شهرا فى بلوك واحد، كنت أكسر البلكونات أمام الأعمدة المنطلقة لأعلى، ومنذ اليوم الأول أفهمت السكان وخصوصا البنات حقيقة وضعى، سربت بلطافة أننى حاصل على مؤهل، وأحيانا أكتب بالصحف، والحقيقة أن الظروف ساعدتنى، نشرت لى قصة فى جريدة المساء، وطبعا نجحت فى كشف أمرها أمام الجميع، قلت لهم بتواضع جم أننى أنا نفسى كاتب هذه القصة.

البيت أربع طوابق، زواياه من الحجر النحيت، بنى تقريبا فى بواكير القرن العشرين، وهيئته الراهنة لا تبشر بأى خير، مطر قاول سكانه على مخاتلته، خطفه، تنكيسه أثناء بنائه فى السر، البيت المتصدع بالنسبه له أشبه بعجوز قانع يستعجل نهايته، وجراحته تهدف لتمكينه من نعيم النهاية والحياة معا، شيء يشبه إخراج الميت من الحى وإخراج الحى من الميت، لا يقترب أبدا من أسلوب عمارته، وأحيانا يضيف إليها ما شاء من الطوابق، وفى نفس الوقت يطلق معاول الهدم.

"مفيش وقت"، الوحدة المحلية أصدرت قرارا نهائيا بالتنكيس، وهذا بالضبط صميم عمل دولاب المعلم مطر ومكمن خطورته،

فهــو ليس مقاول تنكيس وليس مقاول بناء هو الاثنين معا، مقاول ومهندس وصاحب بيت ويتمتع بصيت واسع فى شبرا ونواحيها .

شعر يشبه.. يشبه ماذا، فليكن ربوة من الثلج، ومرجّل بعناية للخلف، وفى وسطه بالضبط يمتد أخدود طبيعى لا ندرى إن كان يرجع لنعومته المفرطة أو لخفته التى تبشر بصلعة معتبرة، ولكن فى الحالتين يبدو الخجل منه مبررا مقبولا لمداومة المعلم على تحسس رأسه .

يرتدى دائما بلدلة كاملة بكرافتة لدواعى التردد على المصالح الحكومية وأحيانا الأقسام، ووجهه يكاد يطق شررا، لا داعى من يكاد فهو يطق فعلا خصوصا ساعة دفع اليوميات، وهو يرجعه بتواضع جم إلى العرق التركى "مطر كان أميرلاى. . ظابط يعنى". المعلم مشغول بتأكيد أصوله، شنبه على مستوى اللون والنعومة كان حجة مقنعة، ولكنه كان يعرف أن الناس لا تصدقه، يمكنك أن تقول إنه كان يؤكدها بإلحاح من يعرف أن هناك مبررات موضوعية لعدم تصديقه.

خطة المعلم معروفة، تبدأ عادة بتأمين البيت، كل بلكونة يصلبها بكتل الخشب، الحديد لصلابته لا يصلح، البيوت كما كبار السن تحتاج المرونة، الأخذ والرد، والخشب قادر على امتصاص انفعالاتها، البلكونة الأولى تحتاج من أربع إلى ست كتل خشبية، وابتداء من الطابق الثانى تكفى ثلاث . الكتلة تدك فى الأرض أو تجبس فى الزاوية لتسند البلكونة التالية .

عملية القواعد تبدأ بعد الصلب بمدة كافية للتأكد من أن البيت استوعب الخازوق الخشبى، كل زاوية تحتاج قاعدة، وهى تحفر واحدة واحدة وببطء، وبمجرد أن يتم حفر القاعدة تسلح فورا بالحديد وتصب بالخرسانة.

شق الأعمدة صعب إلى حد ما، أى خلل معناه انفراط البيت، زواياه التى استوعبت القواعد تحتاج أيدى خبيرة، حديد طايب وولد حرك، أحيانا كان المعلم يضطر لتأجير نحات، واحد من الذين ينتظرون على كبارى القاهرة خلف حزم من المسامير. العمود يشق فى الزاوية ويصب فى الحال، أنا أشق الحوائط والدكتور ينظف وجه القواعد بينما الطبلية تجهز الخرسانة، وبعد جفاف الأعمدة تربط "بسملات" لتنتهى أخطر عملية فى إنقاذ البيت.

زيارة

أثنــاء مــراجعة البروفة الأخيرة زارنى الدكتور، اتصل بى وقــال إنه فى الأسعاف وإنه نازل مباشرة من عند الأستاذة سناء ســكرتيرة الأســتاذ أحمــد البرى بالأهرام، وسألنى "عندك حاجة حلــوة؟ " فقلت عندى، فضحك وقال "الله يخليك يا أستاذ أنا جى على طول". الدكتور يتابع منذ فترة مشروع خيرى تديره الأهرام لإنقاذه من قضية شيك بدون رصيد أخذه ضمانا لأقساط ثلاجة ولم يسدد وحكم عليه بسنة سجن، وأنا اعتبرت مجيئه فى هذه اللحظة طالــع جيد لهذا الكتاب، ومن حسن الحظ كان لدى قطعة معتبرة، وقلت أسأله عما قصده من التسجيل للسائقين، كنت أعرف القصة كاملة، وكنت أعرف أنها سبب طرده من القاهرة وعودته النهائية للعــزبة، ولكنى لم أعرف سبب تسجيله لهم، حاولت أن أتخيل أو قل أدبر أسبابا من عندى ولكنها بدت غير مقنعة ومفتعلة، وها هو جــاء بنفسه والغريب أنه كان متدفقا وبدا أنه جاء خصيصا للكلام فى الموضوع.

استقر نهائيا فى البلد وسرعان ما تأقلم وأصبح فلاح رسمى، جلابــية عربــى بقيطان على القبة والأكمام وشال كشمير ولاسة

صــوفية وأكــتاف عريضة وأيدى غليظة خشنة من كثرة الحش وسحب أرسان البهايم، واتضح أنه هو نفسه لا يعرف لماذا سجل للسائقين، وقال أكثر من مرة مش عارف والله، وبدا أنه نادم على مــا فعــل، وقال إن علاء مازال صديقه، ومازال يفتح له أبواب رزق عــند البــشمهدنس حتى اليوم، وقال يمكن شعوزة رمضان ويمكن الخوف .

واتضح أن الممثلة لم تكن تملك العمارة كما كنت أظن، وأنها كنت مجرد ساكنة مسكينة، وأن مالك العمارة هو البشمهندس أحمد ابن وزير السياحة، وهو شاب وسيم مرح يثبت أن ابن الوز عوام فعلا، فهو يعوم ويبلبط فى بحر من القرى السياحية على شواطئ مــصر كلهــا، والصدفة أو البله أو قل السحت الرسمى -ويمكن أيضا خضار العيون- قرّبه من الدكتور منذ البداية، فى لقاء تسليم العمــل فــى العمــارة قــال له أهم شيء النظافة وراحة السكان، والدكــتور قــال له حاضر يافندم واقترب منه وسحب منه شنطته بــصنعة لطافة وفتح باب الأسانسير وصعد معه حتى باب الفيلا، وشــكره البشمهندس وأعطاه مئة جنيه، ونظرا لأن الدكتور كان يعــيش فى أجواء الفاعل ظنها خمسين قرش جديدة، وحينما نزل اكتشف أنها مئة جنية فعاد جريا إلى البشمهندس وقال له حضرتك اديتنــى ميت جنيه حضرتك أجبلك بها إيه فقال له متجبيش حاجة دى عــشانك ياســيدى، ونزل الدكتور فرحا، ومن يومها سرى بيــنهما ما يمكن اعتباره صداقة مستترة، الدكتور أعجب بالرجل الأســطورة الغامض البحر المتدفق، والبشمهندس أعجب بالشاب

العفـــى المخلــص الجــدع، غيــر أن ما قربهما أكثر الأحاسيس المشتركة تجاه الممثلة، الدكتور كان يتأفف من عنطزتها فى السر، فـــى النظــرات المستترة وجلسات النميمة مع الإخوة والأصدقاء، والبـــشمهندس كـــان يتأفف منها عيانا بيانا، والدكتور يفخر حتى اليوم بأنه مرة نهرها وسط الناس وقال لها "لما تكلمينى تقوليلى يا باشـــمهندس عـــشان كل واحد يعرف مقامه " عندما نادته باسمه مجردا فانعدلت على الفور وقالت له "يا بشمهندس أحمد".

البشمهندس كان يسكن فى فيلا فى الدورين الأخيرين، وتحته يـــسكن العـــسيرى بيه فى دور كامل، وهو حسب وصف الدكتور شخصية غامضة، يشتغل فى تصدير واستيراد الفاكهة، وتحس أنه مـــسنود مـــن قـــوى عظمى، وكان يأتى كل يوم وهو يتطوح من الـــسكر، وكـــان زارع بانجو فى البلكونة، وكانت زوجته متوفية، ويعـــيش مـــع ولـــدين تـــوأم شبه بلهاء وبنت جميلة ولكن غريبة الأطـــوار والدكتور قال إنها مرة ندهت عليه فى عز الليل وسألته "معـــاك حـــد؟" فقال "لا" فقالت "طيب اطلعلى"، وكان الجو باردا وصـــعد الدكتور متلفعا بالبلطو والملفح ووقف على الباب " فقالت لـــه ادخل "فقال" أدخل ليه حضرتك عايزة حاجة أنا سايب البوابة مفـــتوحة " فقالـــت لـــه "طيب أدخل نتكلم جوه أنا لوحدى" فوقف مـــشدوها، ولم يفق إلا وهى تصرخ فى وجهه "غور إنزل، إنزل حـــالا أنـــا مـــش عايـــزة حاجة يا حيوان" ويومها مسخره علاء والسائقين وظلوا طوال الليل يسخرون على عبطه وغشوميته.

العمـــارة عـــشرة أدوار على مخزن تحته بدروم كبير، وفى الـــدور الـــسادس، تحت العسيرى بيه كان يسكن فريد رامى ابن الـــشاعر الشهير، وكان رجلا مسنا فى حوالى السبعين من عمره، وكـــان يملـــك ثـــروة كبيرة وشقق تمليك فى أحياء مختلفة، وكان يعيش بشكل دائم مع راقصة صغيرة وجميلة تقدم وصلات يومية فـــى عـــدد مـــن النوادى والكازينوهات، وكان يتقاسمها مع شاب صعيدى اسمه سيد، سيد متزوجها عرفى، وهو متزوجها رسمى وكلاهمـــا يـــشغلها بطـــريقته علـــى الإخوة والأصدقاء والزبائن، وكلاهما يعرف أن الآخر يشغلها بطريقته، ولكن طبعا دون إعلان وفـــى تواطـــؤ رقيق يسمح بسير الحياة بينهما فى الشقة والعمارة والحـــياة كلها فى الشكل المعتاد: البيه المحترم زوج الهانم الفنانة وسيد السواق، وفى بداية شغل الدكتور فى العمارة تعاركا، وسمع حـــسهما فـــى العمـــارة والشارع برمته، وصمم ابن الشاعر على تطلـــيقها من سيد السواق، وطبعا السواق أخذها فرصة ولم يوافق إلا بعد أن تنازل له عن شقة فى المقطم وخبطه بتناشر ألف جنيه كوم واحد وبعدين طلق.

وتحـــت ابن الشاعر كان يسكن اثنين، الأول هانى الحسينى، وهو بيه فى منتهى الأناقة والشياكة والسخاء وكان يعمل مديرا أو رئيـــسا لمجلس إدراة البورصة، وكان مشهورا، يظهر أحيانا فى التليفـــزيون، وتـــربطه علاقة وطيدة بالبشمهندس وكذلك العسيرى بـــيه، وكان الثلاثة يجمعون على كره الممثلة والتقليل من شأنها،

ورغم أنها كنت تمتلك دورين فى العمارة وأسطول من أحدث السيارات إلا أنهم كانوا يعاملونها باعتبارها حثالة المجتمع.

وهانى كان يعيش بمفرده، وكان يزوره دائما ابنه الوحيد من طليقته، وكان له رفيقة جميلة تأتيه مرتين فى الأسبوع، وأمامه كان يسكن دمترى بيه وهو رجل منظم حذر يملك شركة بواخر وسفن والدكتور شغل عددا من شباب العزبة لديه.

الدكتور اشتغل صبى أو قل مساعد البواب عبده سويلم وهو ليس من أسوان كما كنت أظن ولكن من العدوة التابعة للفيوم، وهو راعى ومحتضن موضوع البنات، وكان يتبسط جدا حينما تشغتل كل السراير، وكان يضرب سيجارتين البانجو ويجلس على الدكة أمام العمارة بعيون حمراء وفم باسم مفتوح على لثة شديدة الاحمرار، ودائما ما كان يضع ساقا على ساق وتنحسر جلابيته عن خرم متسع فى البنطلون ورأسه عن طاقية معتبرة كأى بواب رسمى .

وفى البداية انكب الدكتور على عمله، كان يصحو فى الخامسة، ويضرب البنطلون الجنز والقميص المحبوك ع السرة والفوطة على كتفه ويسحب الجردل وينهمك فى غسيل العربيات حتى الثامنة، ثم يبدأ فى تلبية طلبات السكان حتى الحادية عشرة صباحا، ومنذ اليوم الأول نبه على الخادمات بأن الوقت المحدد للطلبات من الثامنة حتى الحادية عشرة، ومن تطلب شيئا بعد ذلك عليها أن تطلبه مباشرة من المحل، وينام من الحادية عشرة حتى الخامسة .

وهذه الفترة كان يستغلها عبده البواب فى تشغيل البنات البلدى اللى كانوا بييجوا للعمارة من مسطرد وسفط اللبن، وكان يتلم عليهم بعض بوابين وصنايعية المنطقة وسائقى الموقف القريب، الواحدة تمر تتمرقع وسط السوق وتصل العمارة والخير فى رجليها، وكن يجلسن بالثلاثة والأربعة على الدكة فيما يشبه العرض أمام العمارة، وحينما نزل صاحبها البشمهندس فجأة وسأل عنهن قال له عبده يا باشا دول شغالات جايين يخدموا السكان، وانتهى الأمر بل وتأثر وأعطى عبده مبلغا ليفرقه عليهن ولكنه ضربه فى جيبه بكل تأكيد.

وابتداء من الساعة السادسة تبدأ سهرة السائقين فى أوضة كبيرهم مع بنات فى منتهى الشياكة والجمال والدلع من الكيلو أربعة ونص والدراسة، وكن يأتين للعمارة باعتبارها موقف أو استراحة، يخرجن منه ويعدن إليه، ومرة اشتغلت واحدة فى مكان آخر فسلمت وهى مع واحد ليبى وحكم عليها بسنة سجن، وفى سبيل العمارة كن يضعن أنفسهن فى خدمة عبده والسائقين وضيوفهم من الساعة السادسة حتى الحادية عشرة، ثم ينزلوا للشارع لزبائن العربيات باقى الليل، اتنين يقفوا عند مستشفى فلسطين واتنين عند ميدان الساعة فى النزهة وكانوا معروفين فى المنطقة كلها، وكان العمل يجرى على قدم وساق، واللى كانت تقع فى واحد معندوش مكان كان عبده يقوم جريا ويفتح لها البدروم.

ولكن طبعا الدكتور لاحظ، وسأل عن الأصوات العنيفة القادمة من البدرم، وقال عبده ما يعنى إنها خدمة إنسانية، "واحد

ومـــراته متخانقـــين، كانوا هيطلقوا، وربنا يوفقهم فى القعده دى"، ولكـــن الدكـــتور نـــزل البدروم ولم يجد لا زوج ولا زوجة وإنما رجـــلا مـــسنا فوق شابة صغيرة فى عمر أولاده، وطبعا الدكتور هجم عليهم بعرق خشبى وكان يظن أنهما سيلوذان بالفرار، ولكنه فوجـــئ بالبنت تضطجع وتنظر له بكل احتقار وبالرجل يقول بكل ثـــبات وثقـــة " انتو هتلعبوها عليا واللا إيه، أنا مدى عبده عشرة جنـــيه وانت التانى خدلك خمسة واتوكل" وواصل مع البنت وكأن شـــيئا لم يحدث، وبالطبع ابتلعها الدكتور، خرج من البدروم وكأن شـــيئا لـــم يحدث، عبده ولى نعمته، ورئيسه المباشر وكان يغدق علـــيه، أكل وشرب وفلوس من غير حساب، وكان يتعمد إراحته مـــن الشغل، ولا يطلب منه إلا مسح العربيات وطلبات السكان لو طرب، وكانت العمارة ماشية تمام، وكان الكل يشكر فى المساعد الجديـــد المطـــيع الجـــدع، وعلى العموم هو جى يشتغل مش جى يصلح الكون .

ولكـــنه قـــرر الانعـــزال والالتزام، وواظب على الصلاة فى المـــسجد، ودبـــر سبحة طويلة، لها حبات ضخمة بشراشيب وظل طـــوال الـــنهار يـــسبح ويبتهل، وطبعا البعض تزمر، تأخره فى الصلاة وثقته الكبيرة فى نفسه وإحساسه بأنه ملاك وسط شياطين حمـــراء اســـتفزهم، الممـــثلة كانت أحيانا تنتظره حتى يعود من الصلاة وتقول له غاضبة "الجنة بتعتكم قفلت؟ سألت عليك قالولى سيادتك بتصلى. . قولى بقى الجنة مفتوحة واللا قفلت؟".

فـــى هـــذا الـــوقت ظهرت إيمان، إيمان العظيمة التى فضت بكارتـــى، كانـــت شابة فى العشرينيات، ومرت على العمارة فى طـــريقها للـــتقديم فـــى شـــركة خاصة بمصر الجديدة، واستأذنت الدكـــتور فى كوب ماء والارتياح قليلا على الدكة، وحكت له عن الشركة والمؤهل الحاصلة عليه وحاجتها الماسة للعمل، وحكى لها عـــن العمارة والشخصيات الهامة الساكنة فيها وتغربه للشغل فى مصر، ومن يومها داومت على التردد عليه، كل يوم بحجة شكل، والدكـــتور فـــرح بهـــا وأحبها، أحبها بكل صدق ورأى فيها فتاة أحلامـــه، وبـــدأ يخطط للزواج منها، وفى يوم زارته فى المساء، واســـتأذنته فـــى النزول لحمام البدروم، وأحس إنها تقلع هدومها، وتابعها وهى ترميهم قطعة قطعة على سور الحمام، كانت العلاقة فى أوجها على مستوى الكلام والغمز واللمسات العابرة، والدكتور لـــم يتردد، دخل عليها الحمام فتمنعت قليلا ثم وقعت فى أحضانه، وخرج بها عارية إلى أوضته فى المخزن، وبمجرد أن استلقى بها علـــى سريره دخل عبده البواب وقبل أن يتمالك نفسه قال له "والله العظـــيم ما انت قايم. بص انا هقفل الباب وامشى على طول "وقرّ فـــى نفس الدكتور امتنانا حقيقيا له، وأحس أنه رجل طيب وشهم وحـــساس لمس حقيقة حبه لهذه البنت، وبدأ يحتضنها فى ظروف أفـــضل، ولكن فجأة دخل عليه علاء كبير السائقين بنفس الطريقة "مـــساء الخيـــر يا عم الدكتور، خليك زى ما انت، أنا طالع على طول" وخرج على أوضته، فقالت له كمّل، فقال بأسى أكمل إزاى، ولكـــنه سرعان ما تماسك، نفض حبها بسرعة، وكمل معها ومع

أختها وسائر نساء العمارة وأصبح عضوا أساسيا فى السهرة التى كان يقيمها السائقين مع ما تيسر من البنات.

ولكـــنه لــم يـــنقطع عن الصلاة، وأيضا السبحة ذات الحب الـــضخم، وكان ينهى مع البنت بسرعة حتى يلحق الصلاة جماعة فـــى المـــسجد، وكان طوال الوقت مرعوبا أن تكبس الحكومة أو تمـــوت إحـــدى البنات، وخصوصا الهنجرية التى كانت تقوم فى اللـــيلة بعشرة رجال، أو يدبروا له مصيبة مثل سلفه الذى تعارك مـــع عـــلاء كبير السائقين فورطوه فى قضية سرقة، والحقيقة لا أعـــرف إن كانـــوا ورطوه أو ورّط نفسه جاء للعمارة شابا نظيفا مفـــتحا، واشـــتغل مـــساعدا لعبده وأقام علاقة مع خدامة الممثلة، وكانـــت تنزل له فى الجراج ويصعد إليها فى شقة الممثلة، وذات يـــوم بعد معركته مع كبير السائقين سرقت شقة الممثلة، واتصلت بكـــبارات البلد وانقلبت الدنيا، واعترفت الخادمة عليه وقالت إنها كانت معه، وبالطبع عادت المسروقات، وكان المفترض أن يؤخذ للـــشرطة للتحقـــيق، ولكنهم لم يبلغوا الشرطة واكتفوا بأخذ إقرار عليه بأنه هو الذى سرق الشقة وإنه ملتزم بإرجاع المسروقات فى أى وقـــت ومكـــان وطردوه من العمارة، وأخذه البشمهندس فترة للعمـــل معه فى فلته بالمقطم، وهناك أطلق عليه الكلاب الضخمة المسعورة التى يربيها فقطعوه تقطيعا.

وفـــى هـــذه الظروف ظهرت فكرة الشريط كسلاح يمكن أن يـــستخدمه الدكـــتور لو تلاءموا عليه، وربما بلورتها أجواء شهر رمـــضان ووضعتها موضع التنفيذ، وسجل لهم شريطا من السكر

والعـــربدة، والأخطـــر طبعا سيرة الممثلة والبشمهندس وكبارات العمـــارة وربمـــا مـــصر كلها، وثانى يوم انتظرهم فى الأوضة، أوضــــة عــــلاء، وحيـــنما بدأوا يستعدوا للسهرة المعتادة، قال لهم بصوت عال حازم "خلاص مفيش سهر من النهارده"، فالتفتوا إلى بعضهم باندهاش، وقال أحدهم ضاحكا وليه إن شاء الله يا مولانا، فمـــد لهم الشريط كسلاح باتر "اسمعوا ده، عندى منه نسخ كتيره ودى لـــيكم"، وســـمعوا، ولم يكونوا فى حاجة للكثير حتى يبدأ كل واحـــد فـــى وعيده بموتة مختلفة، اللى يقول هسحلك بالعربية قدام العمـــارة وتروح فى شربة ميه، واللى يقول انت كلك على بعضك متستهلش الظرفين اللى هفرغهم فى قلبك ..

لكـــن عـــلاء تـــصدى لهم، وقال الشريط اتسجل عندى، فى أوضـــتى، وأنـــا المـــسئول عنه، واللى عايز حاجة من الدكتور ياخـــدها منـــى أنا، واستراح الدكتور، وأحس أنه أنقذ من الموت، وقرر ان يضع نفسه رهن إشارته، وحلف بأعظم الإيمان أنه ليس معـــه أى نـــسخة من هذا الشريط، والغريب حقا أنه كان صادقا، حماســـه لمواجهـــتهم وتفكيـــره فى مغبة رد فعلتهم أنساه سلاحه الأساســـى، وفـــى الـــصباح نقـــل له علاء القرار الحاسم، قبض إكرامية شهر رمضان كاملة ومغادرة العمارة على الفور.

الموضوع يلزمه بعض التأمل

قــرأت بالصدفة سيرة أحد الكتاب الأجانب، لم أقرأ له حرفا قــبلها، ولكــن اسمه كان يتردد بكثافة فى محيطى الأدبى. حياة قاســية حقا، اشتغل فى مهن تبدو حقيرة حتى بالنسبة لنفر مثلى، غيــر أنها كما أكد المترجم " أثرت تجربته الإبداعية، وتركت ما يكفى لإنعاش شيخوخته، وأثبتت - وهذا هو الأهم - أنه حفر فى الــصخر حتــى نال مجده الأدبى " .. أنا فكرت فى مسألة مجدى الأدبــى .. كانت غفوة، عدت منها ناسيا الكاتب والسيرة والشقاء ذاته ورفعت شيكارة الرمل واندفعت إلى السلم .

كــنا نجهــز الرمل والظلط والأسمنت لبيت اتفق المعلم مطر علــى تنكيــسه وبنائه أو بنائه وتنكيسه أو بنائه أثناء تنكيسه ..أنا آســف، المهــم أنــه بيت قديم، يشبه إلى حد كبير بيوت القاهرة القديمة، شبابيك عالية وبلكونات عريضة وزخارف وكومة ملابس وســراير اعتبــرها المعلم مبررا لخصم جنيه من يومية كل واحد " نومة ملوكى أهه بدل حُقّ أبو عنتر ."

كنا أربعة، أنا والدكتور ونفرين م البلد وحق أبوعنتر لم يكن حقــا بالــضبط، كان مطرحا ككل المطارح، باب وشباك وكتبى

شـــيء يستحق الفخر، ولكننا أضمرنا موافقة جماعية على معايرة المعلـم، البـيت على تصدعه بيت، وفوق أنه بيت فى قلب شبرا، وسـنقيم فيه طويلا، دهرا بكامله، سنمحوه من الوجود ونعيده مرة أخرى .

السحارة تحـت الـسرير، أحدهم نبشها بسرعة لكن الكتب صـدمته، فمـدها لى بقرف " خد يا عم الأديب " . سيرة الكاتب كانـت أبـرزها على مستوى الغلاف والفخامة وأنا تلقيت الهدية بإحساس يليق بأديب جاد، مبالغتى بالفرح بها كانت فرصة لإثبات مواهبـى، مـثل هذه المواقف كانت فرصا مواتية للزهو بهويتى الأدبـية، هززت سيرة الكاتب وضغطت الكلمات بخيبة أملى فيهم وفـى الحـياة بشكل عام " دا خد جايزة نوبل .. نوبل .. عارفين يعنى إيه نوبل".

المعلم لم يبالغ فى معايرتنا، المسألة أعمق من سرير وسيرة وملابس يمكن استعمالها، إنها شقة واسعة، أربع غرف وبلكونتين إحداهما تذكر بغراميات الأفلام القديمة، شبرا وبنات شبرا، بالتأكيد هناك جيران وبالتأكيد هناك صدف، كل واحد اختار غرفة تناسب ظروفه وراح يتهيأ لمرحلة جديدة.

السكان نقلوا معظم الأثاث، ترميم البيوت ليس مسألة هينة، ولكن ما لم يجدوا أهمية لنقله كان حياة مخملية بالنسبة لنا، كراسى قطيفة وسفرة كاملة وسراير وحمام أفرنجى ودش وحامى وبارد ودنيا تقلب .

غرفتى مضمونة، بمجرد أن رأوا المكتب اعتبروها خارج المنافسة، كنت أبحث عن ظروف مناسبة لكتابة رواية، فى الغرفة، غرفة عين شمس، كنت أكتب، أقرفص على كرتونة الكتب وأكتب ما أشاء، ولكنى طوال الوقت أحس أن الرواية تحتاج شيئا آخر: مكتب؛ خشب، حديد، المهم مكتب وبالقرب منه سرير، المكتب للكتابة والسرير للتأمل فى الكتابة، والغرفة وعدت ببداية مدوية .

أيـــن وصلت، أى رواية ؟، لا داعى من هذه الأسئلة، لا تجر علـــى إلا الإحباط، خلينا ف عولة، جدى عولة، قضى شطرا من حـــياته أو قل شطرين تلاته، سانن بلطة ومتقلد" دِجْرة " ومنطلق علـــى المـــنطقة نهبا وسلبا وتقشيطا وقتلا، وكان يرافق عادة عبد الحميد ابن عمه ضيف الله وعابدين ابن عمه صقر، وحينما كانت الحكومة تضيق عليهم كانوا يحتمون بمنضرة ابن عمهم ياسين أبو محمود رفيق حمد باشا الباسل وزميله فى عمدية عربان الرماح ثم فـــى مجلـــس الأمة سنة ١٩٢٤، وهى قصة فى حد ذاتها، أقصد المنـــضرة، نفسى أعمل عنها كتاب كامل، يا سلام، كان لها بوابة حجـــرية عالية كأبواب القصور، وكان موقوف عليها عشرة أفدنة من أجود الأراضى، وكانت مائدتها عامرة، وكانت قبلة للشعراء والمغنـــين والجوعى والمحرومين والتائهين والفارين فى المنطقة كلهـــا، وطالمـــا كتبت فيها المدائح والهجائيات، وكان لها حراس وخـــدم، وكانـــت أرضـــا حـــراما، حتى الحكومة لا تجرؤ على

الاقتـــراب منها، وكان عولة يفعل فعلته ويختبئ بها أياما وأسابيع دون أن يلمسوه .

ومرة كان ماشى مع رفيقه عبد الحميد وواحد فلاح فى الجبل، الصحراء الممتدة جنوب الفيوم، وكانوا جوعى، يتنشقون على أى شيء، وفجأة هلّ عليهم تاجر فوق خمسة جمال محملة .

أبو ضيف الله اعتبره هدية سماوية " رزق جانا يا عولة "، وعولة قال " عيب يا عبد الحميد، الراجل فى وطننا والمفروض نحموه " ولكن بو ضيف الله لم يكن فاضيا لمثل هذا الكلام وحسم الموضوع بسرعة " نا هنمشيله، إن جيت جيت وإن ما جيت ملكش دعوة "، وتمشى ناحية التاجر، ومسك لجام الجمل وهزه، وطبعا التاجر خاف وارتبك، وحيد وسط بدو نهابين، " مالك يا شيخ العرب . عايز أيه يا شيخ العرب " وراح يفتش عن شيء يعطيه له، فقال عبد الحميد بحسم " انزل " فسأل برعب " أنزل ؟ أنزل لا يا شيخ العرب ؟ " فشكم عبد الحميد الجمل بقوة ونتّ "قلتلّكْ انزل"، حينها لم يجد التاجر مفرا، وقال بصوت عال " هيا موتا موتا " وسحب نبوتا أو قل زقلية وتماطع ونزل بها على رأس عبد الحميد ففلقتها فلقا .

لحظتها كان عولة ينتظر مع الفلاح خلف ربوة، وحينما سمع صرخة عبد الحميد ظهر، ووجه " دجْرَته " ناحية التاجر وناداه " صبّى عندك "، ويبدو أنه كان منتشيا أو قل مجنونا بصرع بو ضيف الله فقد قال " مالك أنت التانى .. هتسكت واللا اشيعك "، وكانت هى الكلمة، وشيعه عولة بعيارين دك فى وجهه، وجرّ هو

والفلاح عبد الحميد وربطوه على جمل وسنده الفلاح وركب عولة على جمل آخر ونزل على أقرب عزبة في بني سويف وباع الغنائم وانتهى الأمر كأى غزوة منتصرة .

أهل التاجر اتهموا فيه جيران لهم كانوا يناصبونهم العداء، وبالفعل بدأوا يتربصون لهم ويطاردونهم في الليل والنهار بل كادوا يظفروا بأحدهم، لكن واحد من أهل الخير أسر لهم "إنه عولة، عولة بو رسلان"، وبالطبع عولة كان متاحا، هامل طوال الوقت في الحمارى والأحراش، وكان يمكنهم الانقضاض عليه بكل سهولة ويسر، ولكن لاعتبارات فلاحين متحضرين ومن بنى سويف لجأوا لقريبه حمد الباسل، وجاءوا إلى منضرة ياسين في ركب يقوده الباشا،، والباشا قال " الجماعة هضول يسألوكم في دم راجلهم، وهي وحدة من اثنين، إما عولة ورجالته يحلفوا إنهم ما قتلوه ويبروا ذمتهم من دمه وإما تدفعوا دية راجل " .

وبالطبع لم يكن سيدفع إلا ياسين، ليس فقط لأنه الكبير ولكن لأن عولة وبيته كله لا يملكون دية راجل، واستدعى عولة وجاء وأخذه ياسين على جنب وقال له " احلف، احلف يا عولة والعويلة اللي كانوا معاك هيحلفوا "، ودخل به على الناس وهو متأكد أنه سيحلف، وكان عبد الحميد والفلاح سبقاه .

وتقدم الفلاح أولا ووضع يده على المصحف وحلف " وحق ها الطالب الغالب أني ما قتلته ولا شوفت اللي قتله "، ثم تقدم أبو ضيف الله ووضع يده على المصحف وحلف " وحق ها الطالب الغالب أني ما قتلته ولا حقيت إللي اقتله"، وتقدم بعده عولة ووضع

يده على المصحف وحلف " وحق ها الطالب الغالب أنى أنا اللى قتلته وهضول كانوا معاى "، لحظتها كاد ياسين ينفجر من الغيظ، ونسى أنه فِى ملم وسط الناس وقال " جت ع الحلُوفة يا عولة، جت ع الحَلوفة، إنت بتسرق وتقتل وتنهب ف البيوت .. جت ع الحلُوفة !!" ...

... ها أنا تعثرت، أندفع بحماس ثم أتعثر، لا أجد كلاما، وإن وجدت أشعر أنه ثقيل ومتعثر وجاد، أنا أحب الكتابة بمرح، أحب التهريج، وكل مرة أكتشف أنى كنت جادا أكثر من اللازم .

لكن الظروف تغيرت، الغرفة كانت على مستوى خيالى للمكاتب المحترمة، شباك على الشارع وباب يمكن إغلاقه من الداخل، والمكتب نفسه أوحى بالكثير: الآن يمكن أن أبدأ، أوراق البدايات مزعجة، لا أنا اعتمدتها بالكامل ولا أنا تركتها بالكامل، ولكنى سأحاول ضبط الأمور، الظروف شىء ضرورى حقا، يمكننى الآن الاسترخاء على السرير.. الموضوع يلزمه بعض التأمل .

للكاتب

* أحلى عشر قصص – مع آخرين – تقديم فتحى غانم – دار أخبار اليوم ١٩٩٦ .
* أسراب النمل – قصص – هيئة قصور الثقافة ١٩٩٧ .
* أشياء مطوية بعناية فائقة – قصص – الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠ .
* لصوص متقاعدون – رواية – ميريت ٢٠٠٢ .
* القاهرة شوارع وحكايات – الجزء الأول – مكتبة الأسرة ٢٠٠٣ .
* القاهرة شوارع وحكايات – الجزءان الأول والثانى – الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٧ .

إصدارات جديدة من ميريت

الكتاب	المؤلف	سنة النشر
١- دماء أبوللو (رواية)	زين عبد الهادى	٢٠٠٨
٢- غرفة ترى النيل (رواية)(طبعة ثانية)	عزت القمحاوى	٢٠٠٨
٣- ألعاب الهوى (رواية) (طبعة ثانية)	وحيد الطويلة	٢٠٠٨
٤- يوتوبيا (رواية)	أحمد خالد توفيق	٢٠٠٨
٥- إنى أحدثك لترى (رواية)	منى برنس	٢٠٠٨
٦- هدوء القتلة	طارق إمام	٢٠٠٨
٧- سرير الرجل الإيطالى (رواية)	محمد صلاح العزب	٢٠٠٨
٨- دم على نهد (رواية)	إبراهيم عيسى	٢٠٠٨
٩- شروط المحبة (قصص)	عفاف السيد	٢٠٠٨
١٠- خيوط التنجستين (رواية)	ناجي الشكرى	٢٠٠٨
١١- بجوار رجل أعرفه (قصص)	محمد فتحى	٢٠٠٨
١٢- بيع نفس بشرية (رواية)	محمد المنسى قنديل	٢٠٠٨
١٣- ابنة القومندان (رواية)	شريف حتاتة	٢٠٠٨
١٤- سراويل المدينة (قصص)	عبداللطيف الإدريسى	٢٠٠٨
١٥- عندما ينزل الأمير للصيد (قصص)	محمد عبد النبى	٢٠٠٨
١٦- عطر هارب (قصص)	سعد الدين حسن	٢٠٠٨
١٧- حي شرق (رواية)	محمد الطناحى	٢٠٠٨

تجليات أدبية

البعض معه فكة

و البعض ليس معه فكة..

و هكذا الحياة.

ابراهيم منصور



الفوتوغرافيا وتصميم الغلاف : أحمد اللباد

ميريت